نعيم عبد مهلهل

أحزان النبي السومري



قصص

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

أحزان النبي السومري

عنوان الكتـــاب: أحزان النبي السومري

اســـم المؤلـــف: نعيم عبد مهلهل

المـوضـــــــــوع: قصص

عدد الصفحات: 152 ص

القيـــــــــــاس: 14.5 * 21.5 سم

الطبعـة الأولى: 1000 / 2016 م - 1437 هـ

© جميع الحقوق محفوظة لدار نينوى

Copyright ninawa

سورية ـ دمشق ـ ص ب 4650

تلفاكـــس: +963 11 2314511

هاتـــــف: +963 11 2326985

E- mail: info@ninawa.org

ninawa@scs- net.org

www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

لا يجوز نقل أو اقتباس، أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب،
بأي وسيلة كانت من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

نعيم عبد مهلهل

أحزان النبي السومري

قصص 2016

كاهنة ديوان الوزارة

« في اليوم الذي قُسِّمت فيه الأنصبة كانت الحصة المخصصة لي العذاب والألم »

شاعر سومري مجهول

لكل مدينة رجل، لا أعتقد أني رجل هذه المدينة, ولكنها بعض معاناتي، واليوم أدفع خطواتي فوق أرصفتها فلا أجد سوى وجهها الشاحب وقطرات الألم تتساقط من عيون الأنهار، فكل شيء صعب في هذا الزمان, ورغم ذلك فنحن نعيش، فتكرَّم أيها السيد وانظر إلى طلبي فابنتي تريد أن ترى أيامها القادمة مستقرة، ولأني أتخيل بنرجسة شاعر، رسمتْ شاشة جدار الاستعلامات الرجل ببدلته المستوردة ونظراته المحسوبة بدقة كومبيوتر (صخر) وبعد أن دفع من فمه سحابة الدخان كتب على الطلب "لحين توفر الدرجة"، عندها قلت لكن مثل جرأة محارب وادخل عوالم التجريب تشخيص الأيام التي تتراكم فوق برج الذاكرة وأتجانس مع خيالات الماضي بعد أن ينتهي طابور توزيع أحذية الجلود الرخيصة لأقتنص وجهاً سومرياً يجعل الذاكرة تهيم في مخيلة من الغرابة، وهكذا شمرت عن ساعدي واستخدمت طريقة صيادي المواهب وجلست على مدرجات ملاعب النساء وكل واحدة تمر يذكرني عطرها ولون شعرها بالغرب المستورد. الغرب الذي يحاصرنا حتى ونحن نمارس ما حلله الله مع زوجاتنا. ويكاد النهار ينتهي وليس هناك من لها عطر بخور المعبد المشتعل في الزقورة روحي ولا عيون باتساع ما تملكه شبغاد، وهكذا أعود بخفي حُنين إلى بيتي وعلى الفراش أرخي ساقي بعد أن أخبر زوجتي أنها وعند إغفاءتي عليها أن تضع كتاب (ألواح سومر) تحت وسادتي، هي لا تؤمن بهذياني المثقف ، ولكنها كزوجة مطيعة ستفعل ما أمرتها به، لا أريد أن أطيل فبعد حلم أزرق تحقق لصياد المواهب ما أراد فالصباح كشف لي أمورا جديدة وما دار في فضاء الحلم تصورته لا يعود، وأنت ذات العيون الخضر التي مسحت بيديها المباركتين على رأسي وقلت: (غدا ستحصل على خمسين ألف دينار تبرع بألف منها إلى المعبد) وها أنا متوجه صوب اور لأبحث عن المعبد الذي وصفته أنه في الجناح الشرقي من الزقورة ,عليك أن تنحني وأنت تدلف بابه الحجري تنزل عشرة سلالم ثم تجدني أمامك، ولكن ماذا تفعل بالنقود التي حصلت عليها؟

سأشتري جهاز تسجيل لأني أريد أن أتمتع بأغنية جديدة لنجاة الصغيرة عنوانها (أسألك الرحيلا).

- نحن هنا نسمع الأغاني من الحناجر والقلوب عندما تكون المغنِّية سومرية ولكن التي تغني هناك "أسألك الرحيلا" مغنِّية فرعونية أنت تحلم بصعود المركب لتصل إلى البلاد البعيدة. للسفر أيضاً هناك تعويذة مغنَّاة، هل تريد أن تحملك تعويذتي إلى مصر؟

- لا أرغب فلحكومتها موقف من بلادي.

- كالذي بين آشور وفرعون؟

- ليس بالضبط. اليوم تطورت الحرب، هناك حرب دبلوماسية واقتصادية وعسكرية.

- إذن كيف تحب صوت الكاهنة من بلاد لا تود الذهاب إليها؟

- الغناء ليس له علاقة بموقف الحكام.

- عندما يأذن لي جنوني بالرحيل إلى عينيك.

- ولكني أملك حبيبا سيغار ويغرز سكينه في صدرك عندما يسمع.

- وأين هو الآن؟

- في قبره الملكي مع حليّه وملابسه الأميرية. لقد مات بطلا في الحرب ضد العيلاميين. أنتم تسمون الذي يموت من أجل وطنه شهيداً، ونحن نسميه بطلا، ولكليهما منزلة عظيمة فكيف أمنحك عيني؟

دب خيط الخجل في عيوني وأغاظني تصرفي الأحمق، أخرجت رزمة النقود وقلت: - لمن أدفع النقود؟

- ضعها على المذبح، وعندما تفكر بالحب لا تنظر إلى عيون امرأة مشعة فإنها بالتأكيد لرجل غيرك.

- الآلهة نفسها كانت تهيم بالجمال، هل تذكرين عشتار؟

- ولكنها لم تحصل سوى على النقد الجارح الذي صبه عليها الفتى جلجامش، لأنها تريد أن تمتلك كل جميل.

الجمال في هذه الأيام أن تجد الخبز الأبيض وأن تحصل على سكن وإن طغت فيك الرؤى لا بد من سيارة مبردة توصلك إلى العاصمة لتذهب كمن عُجن مِن خجل الجنوب كله وتقف أمام واجهة المخازن وقد بهرتك الأضواء وأدامت في عينيك صلة التمني وأنت تقدم طلبك للحصول على وظيفة في ديوان الوزارة، وقد أعجب خطك موظفة مكتب الخدمة لترفع حاجباً من الكحل وتنظر بطرفي رموشها الماسية إلى الجسد النحيف وقد ارتجف من نظراتها التي أشفعتها بابتسامة حارة أعادت إليها دفء الملاجئ لتنتفض مثل عصفور بلله القطر وتقول بكلمات مرتبكة:

- عفواً سيدتي، هل في طلبي جملة غير مهذبة؟

- هل هذا خطك وتعبيرك، وكيف جئت من مدينتك؟ ألا يوجد فيها دوائر تقدم إليها الطلب؟

- في كل مرة يحفظ طلبي لعدم توفر الشاغر. أحدهم نصحني بالمجيء إلى الوزارة.

- لماذا لا تعمل في القطاع الخاص، الربح فيه وفير؟

- زوجتي تحن إلى امتلاك دفتر أسواق مركزية وأن يقال لها زوجة الموظف فلان.

- وشهادتك؟

- الإعدادية، وستسألينني لماذا لم أكمل دراستي؟ سأرد عليك بصراحة، الفقر، أولاً انتظرت عاماً لاعمل حتى أستطيع توفير المال لدراستي الجامعية لكن الحرب جاءت بجحيمها وتعاستها وتعرفين بقية القصة، المهم عدت منها سالماً وبخط جميل وتعبير رائع هذا سيجعل طلبك مقبولاً مع توصية مني، خطوط طلبك لها ميلان غريب وزواياه تبعث ضوءاً خاصاً يجذب أيَّ أنثى. هل تكتب الشعر؟

احمر وجهي، فزوجتي عندما تغضب تقول: انهض يا شاعر الإفلاس، فالطحين نفد واشتر لنا الماش لأنني مطلوبة "غداء الزهراء"، قلت: اكتب لنفسي فقط ولا أريد أن أخرج للضوء. أنا أعيش في دائرة الحلم السومري، هو فقط يجعلني أتحمل البطالة، أما كيف أعيش فأبي أورثني علوة حبوب مؤجرة وأمي تركت لنا في واجهة دارنا حانوتين ومساعدات أهل زوجتي وفوق الجميع، كاهنة المعبد إنها تمنحني في كل ليلة وجبة عشاء دسمة، كاهنة زقورة أور ألم تسمعي بها؟

- لم أسمع ولكني أرى الكاهنات في المسلسلات التاريخية، المصرية فقط، وحسرتي أن أرى واحدة من ممثلات بلادي تمثل دور كاهنة، وكاهنة الزقورة؟ حدثني عنها.

ثانية أعود إلى حلمي معك, والآن لا أسألك الرحيلا بل أسألك البقاء. قلت: إنها تشبهك تماماً.

شع وسط أجفانها ضوء فيروزي أزرق، قالت بدلال الطيور بداية كل دفء:

- وهل أنا جميلة؟

قلت وقد أغراني انفراج شفتيها:

- جميلة، جميلة جداً يا سيدتي .

قالت: وقد أسكرها غرور المرأة:

صفها تلك التي تشبهني؟

وهكذا عاد بي الإياب لأصفك بعيداً عن الحلم، وفي المكان نفسه قرب دكة قاعدة الزقورة:

- أنت جسد من ضوءٍ عجن بماءٍ طيني مالح ليصير أطيب وقت مائدة السرير.

قالت بغضب:

- أنت جلجامش آخر لا يهمك من المرأة سوى سبي جسدها.

- إني معجب بجبروت فتى أوروك، هو وحده من ألهمني الاندفاع لأصل إلى المرأة، ما رأيت في حياتي سحرا كسحرها، رفعت رأسها، حركت جدائلها، ثم تسلقت سلم المعبد، وأنا خلفها أضع قدمي مع وقع طبول تضرب في الأفق القريب حيث تحرك موكب جلجامش من أوروك إلى أور لينتقي منها فتاة لياليه الملاح. هي مثلي سمعت الطبول أصخت السمع باتجاه اريدو.

قالت: لا ليس من هناك اتجاه أكد. لا ليس من هناك، صوب لارسا، لا ليس من هناك.

ذعرت وقالت:

- أيها الفتى هذه طبول الحرب، خبئني بين ثيابك فهو يريدني هذه المرة .

- ولكني لا أرتدي سوى هذا القميص فأين أخبئك؟ سأموت فصدري لن يتحمل ولوج امرأة هائلة مثلك.

قالت: لا عليك .

ثم بدأت بقراءة تعاويذ سومرية. إنها أصوات مرتبة بدفء وعناية وكأن المفردات تصطدم أولا بشجرة، وبماء، ثم بصدر امرأة ليكون الصدى لذيذاً جداً، وفجأة انفتح صدري دون أن تسقط قطرة دم واحدة ورأيت قلبي صغيراً أحمر ينبض ببطء كمن يسير على سلم موسيقاه إلى المجهول حيث أوقفتني عيون موظفة الديوان، وقالت: توقف عن التحدث عنها، ألم تسمع بغيرة المرأة، إنك مسحور بها، وكأنها تسلب منك قدرتك على الاختيار، هي وهم تنساق خلفه وعش لهذا الحاضر الذي أمامك.

وضعت طلبي في إضبارة خضراء، وقلت وقد وعيت حالة جديدة. إني متعلق بهذه الأنثى:

- لوركا يقول: أحبك هكذا. هكذا خضراء .

قالت وقد أغرتها العبارة: أنا أم الإضبارة، أم هي؟

قلت: أنت.

أنتِ فجرتِ في صالة ديوان الوزارة عاصفة ودوياً هائلاً وكأنها الطائرات يوم أنزلت قراصنتها فوق المعبد لتسرق حلي الكاهنة وتبعثر أوراق أور- نمو، ومجندة شذت بها الحضارة لتخلع زيّ المارينز وفتحت قبراً ملكياً.

ثم مارست جنون العري مع صاحبه.

الدوي كاد يحطم كل شيء، ذعر المراجعون وغادر موظفو الوزارة مكاتبهم، وحدها ظلت واقفة بثبات وكأنها تنتظر ما بعد العاصفة خفت أن يكون المارينز قد جاؤوا ليسرقوا كاهنتي الجديدة قلت:

- ما زال صدري مفتوحاً لكاهنة أخرى، فتعالي وادخلي لسوف يأسرونك، فعلوها مرة في

أور، ولا أريد للمأساة أن تتكرر ثانية يا إلهي، جئت لوظيفة أقتل فيها جوعي، ولا أجد أمامي حلم وسادة آخر ولكنه الآن حقيقة: أيها الرجل الذي امسكته التعاويذ من أطراف ثوبه، كيف لك أن تعيش الوضع مرتين، وفي كل مرة هناك امرأة صنعتها الأسحار وأحلامك، صنعها الجوع والفطرة وانتظار ما تجلبه بطاقة التموين. لقد نسيت أن لك زوجة عجنت بالفطرة كل كلماتها الساذجة وجاءت إليك من أعماق الريف لتقول لك: سأظل يا ابن عمي وفيّة كل العمر مثل وفاء الدجاجة لديكها الأحمر ولأنهم أتوا بها في عربة ذات حصانين، قلت:

- استريحي الليلة ودعي ديكك الأحمر ينام، ونامت المسكينة ليلة عرسها دون جسد خشن، ولتفتح أنت الكتاب تبحث عن كاهنة الزقورة ولتمارس معها ما يتمناه الرجل مع امرأة يهواها، وهكذا يختلط عليك الأمر فتضيع بين عشق كاهنة الزقورة وعشق كاهنة ديوان الوزارة. إن اختلاط الأوراق لرجل مثلك يجلب المأساة لعالم الفضيلة الذي حرصت أن تكون واحداً من سدنته. هذه الفضيلة التي أورثتك الصبر وطاعة الأوامر، وجعلتك منغلقاً على ذاتك التي قرأت في عزلتها اشتياق آلاف من الذين كتبوا وحكموا أو اعتزلوا في حضارة الإنسانية ليتحدثوا إلى طيّب مثلك عن مثاليات أن يرتقي الإنسان بألمه وجوعه أولاً. هذه المرأة التي تنتصب بموازاة الثريا الهائلة في صالة الديوان لن تكون بدلاً عن تلك المقدسة التي مسحت على رأسك ومنحتك في الحلم مالاً ستوفر به لأطفالك طحيناً يستطيعون به أن يكملوا عامهم الدراسي من دون جوع. ولكنك مصاب بسهام الهوى، تخيلت ما يتخيله الشعراء في قصائدهم، وهمست بلغة سومرية: (شكراً لتوصيتك ولكن. لي طلب آخر أهم من الوظيفة، أن يكون لي معك مساء واحد. نحن في الناصرية نستمتع بحديقة الزوراء كأجمل ممشى لرجل وامرأة في العاصمة أدعوك إليها إن لم أكن متجاوزاً في أدبي).

قالت وهي معجبة بارتعاش شفتي واهتزاز جسدي النحيف:

- حسناً سأكون لك هذا المساء.

من الكتب تعلمت أن (لك) تعني امتلاكا كاملاً لكل ما في المرأة، هذا أغراني كثيراً.

كي أذهب إلى الباب الشرقي وأشتري قميصاً نصف عمر، وأقف أمام مرآة المقهى، وأتطلع إلى شكلي بزهو، أنا من جاوز الأربعين، وبين مناداة النادل لتلبية طلبات الزبائن، وضجيج المقهى رسمت لي المرأة المخدوشة شكلاً آخر للقاءين لا أظن أنهما تحققا لقد كان كل شيء في الحلم، ورغم هذا تبدو متعة الأحلام مطلباً يحتاجه فقير مثلي في عصر افتقدنا فيه التفاح ولكنَّا لم نفتقد الحب، وهذا هو الأهم. كان المساء بارداً والشجر امتلك عتمة خضراء، فالشتاء يحمل على أكتافه أمتعة سفر طويل. في المرآة رأيتهما قادمتين. كاهنتان من عصرين مختلفين. واحدة ترتدي ثياب المعبد البيض بكتف عار يضيء بياضه، وأخرى ترتدي فستاناً أحمر تشم فيه رائحة الورد. كانت الأولى بعنق رخامي طرزته قلادة أحجار اللازورد فيما كان عنق الثانية مخبأ خلف ياقة قميص أبيض زينته ربطة حمراء تحيرت إلى أي من الاثنتين أمد يدي، خطوة واحدة. ابتسامة واحدة. تسريحة واحدة. قوام واحد. فقط ما ترتديان يختلف، ولأني توافقي دائماً أخذت بيد الاثنتين وكانت كل واحدة تشدني إليها بقوة حتى كدت أنقسم إلى نصفين. مع الأولى أعيد استذكار حبيب الأمس حين اقتربت خيول عيلام من أسوار أور المقدسة.

- كنت أعشق فيه الفتوة والجبروت. أنانا نفسها كانت معجبة به خلعت أهدابها شعرة، شعرة لتكشف إن كان سيكون لها. لكن أور سرقته منا نحن الاثنتين لتحمّلني سبب موته واتهمتني، بأنني من دفعته إلى الحرب، ولأني كاهنة قوية قلت:

- أيتها الآلهة المغرورة: نعم دفعته حتى لا يهدم المعبد وتسلب هياكل آبائك من الآلهة وأن تكسر ألواح طوفان أبينا نوح، وأن يهدم بيت إبراهيم.

أغاضها أن يكون الأنبياء بموازاتها. أزبدت وأرعدت وقالت: أولئك رسل إنما أنا الآلهة. آلهة شدت على جسدي حبال مودتها عندما تهت ذات مساء بين أطلال بيوت المدينة المقدسة وكانت هي تبحث عني لتنقل إلي شكر كبير الكهنة لهديتي المتواضعة التي نذرتها ذات مساء، الذي حملت فيه الطائرات رجال المارينز بعيداً، وجئت مع نقودي أستعيد فيها بهجة العبور الآسر إلى أور.

قالت موظفة الديوان وكانت تسير بأنوثة متحضرة، فيما كانت خطوات كاهنة الزقورة تضرب مع نغمات قيثارة سومرية:

- لا أحب أن أتمشى مع رجل شارد الذهن. الحياة هي هذا المساء فقط، والأوقات الأخرى هي ضياع في أروقة الذاكرة. دعك من كل شيء وقل كيف خلق الله المرأة؟

قلت:

- خلقها من صلصال خلط بالعشب والشعر وقليل من الغيرة. إنه تصوري. هذا التصور أغراني كثيراً وأنا أتجول مع هاتين الأميرتين حتى نسيت موعد عودتي إلى مدينتي لأعيش الزمن برغبة من لم يذق معاشرة امرأة في حياته، ولأعيد مع عطر كل واحدة منهن ذكريات سنين قديمة. كان الماء بارداً، ولكني أدفئ جسدي بجسديهما أشعلت وسط عيونهن رغباتي وأوهمت جسدي النحيف أنهما تحتضنان فيَّ ذكورة كالتي امتلكها الأمير السومري أورنمو يوم اشتهى عشر عذارى في ليلة.

قالت موظفة الديوان: مساء العواصم يمنحك اشتياقاً أكثر من مدينة أخرى، ربما لأنها تشعرك بفارق ما، من ثقافتي المحدودة أعرف أن ليس في العالم عاصمة تقع في الجنوب لهذا ستتمتع قدر ما تشاء بهذا المساء فلربما لن تراني بعد ذلك.

قالت كاهنة الزقورة: نعم النسيان بعض من حكمة النساء. إنها إرادة نفرضها عليكم لنجلب لأجسادنا الرقيقة هيبة ما- حتى ولو في الذكريات - وانظر إنها تحدد حجم الزمن الذي تريدك فيه, بت أشفق عليك أيها الجنوبي.

- ما تقصدين؟ هل ستنسينني أنت أيضاً، هل تتركاني هنا وحدي؟

- أنا لا أتركك لأني معك دائماً، تحت الوسادة، بين أوراقك، في جوعك، أما هذه التي تتلاعب في أحلامك فهي غريبة عنك فلا تضيع في غرف عينيها إني أحذرك. لا أريد أن تنسى جنوبيتك لمجرد مساء في حديقة.

- ولكنك معي دائماً.

ورغم هذا تبدو ميَّالاً لها أكثر مني قرأت موظفة الديوان الحوار وسط شفتي وقالت:

رغبتي أن أجد رجلاً تكتمل فيه الأحلام، هو موجود، واقع أم خيال، هذا لا يهمك.

ولكنك تملك خجلاً ورقة لذيذة استهوتني منذ أن ارتجفت ساقاك أمامي وكدت تفعلها برعشتك الخضراء التي لم تنتبه لوجود أكثر من مائة مراجع، ويبدو أن الجنوب لن يتوقف عن فضح رغباته المجنونة حتى في أقدس الأمكنة. خذ بيدي ولنبتعد عنها خلف تلك الشجرة. المرأة عندما تكون مع رجل لن تحتاج ثالثاً سوى الله، والله سيغفر لمن يحب حتى ولو لمساء واحد، ثانية طفح الغضب الوردي على وجنتي كاهنة الزقورة. ورفعت خنجرها مرة أخرى وقالت: لا تذهب معها فأنت لي.

لكن اليد الناعمة لموظفة الديوان كانت أرق من ورقة صفصاف تموت مبكراً، وبخيط عينيها الرفيع احترق صدري والتهبت شفتاي وانفجرت في ساقي أنهار غير دجلة والفرات، فرأيت بين طيات الجسد البض كل أساطير الحلم وشعرت أن المرأة اللذيذة إنما هي بعض من بضاعة الآلهة التي تمن بها على البشر، فكان لي أن أنسى أن هناك في العالم جنوباً وأن لي زوجة وأطفالا ينتظرون صرختي لهم وأنا أمسك كتاب التعيين، والكاهنة الأخرى فتحت نهرا من الدموع وسط مساحة العشب، فلم أبال، ومع الطقس المشتعل بلهاثي الريفي ونداءاتي الضاحكة نسيت هي أيضاً ما كان يربطها بحياتها قبل أن تطأ قدماي وزارتها الموقرة، واستجابة لسذاجتي وأنا أحاول أن أتفنن معها بحركات جديدة، كميلان جسدي مثل دوران حمار في ناعورة، أو ادخال رأسي في كهف صدرها كما يفعل الديك وهو يدخل رأسه بين جناحيه، وكنت أردد كلماتي الأولى يوم فضت بكارتي في طفولة مبكرة، عندما صحبني والدي وكان حارساً في مديرية الآثار، صحبني معه لأكتشف ما رواه لنا عن الوجوه المدورة والعيون الغائرة والطيبة العجيبة لعالم الآثار الياباني كيتومارا وزوجته الشابة وقد سمح لهما بمشاهدة ودراسة آثار مدينة أور، وفي الظهيرة التموزية ندم الصبي لأنه جاء فأمره والده بالبقاء في خيمة العالم، مع زوجته الشابة، وأمامها جلس القرفصاء خائفاً من ضحكتها السريعة وعينيها الصغيرتين وقد لبست قبعة من القش وبنطلوناً قصيراً جداً، فكان كلما رفع رأسه ليتأمل جسدها المنحني وصدرها رمته بقهقهة طويلة وحدثته بعربية غير واضحة: (ولد عفريت سلمان..) .

يرتجف هو. إنه ليس عفريتا، بل حزين فلم يعتد أن يرى في وجوه نساء محلة السيف هذا والصور التي يراها لنساء الأجانب في المجلات هي صور لنساء يشبهن الملائكة في قصص جدته. مارلين مونرو مثلاً، برجيت باردو، هند رستم ، نادية لطفي، ولكن هذه المرأة الأجنبية تكاد تكون بلا عيون. إنها تخيفك يا سلمان، وأبوك لا يزال مع زوجها بين أطلال قبور الملوك الذين سحروك، وأبوك يحمل إليك بين طيات ثيابه غبار أزمنتهم، ولكن لحظات الخوف لن تدوم فبيدين رقيقتين قدمت إليك قطعة حلوى، وشطيرة جبن لذيذة للمرة الأولى في حياتك تتذوق غذاء معلباً. قالت: إنه لذيذ.

ولأنني جائع أكلت. لم يكن لذيذا، كان مالحا، حتى الخبز المحمض كان مالحا. قالت مرة أخرى: ها سلمان لذيذ؟

قلت وقد ارتجفت الكلمات بين شفتي: لا شيء ألذ من طبخ أمي.

- ولد عفريت تتكلم بشجاعة. كم عمرك؟

- اثنا عشر عاماً يا سيدتي.

- في المدرسة؟

- نعم.. أقرأ جيداً، وأتعلم الكتابة حتى فيما لا يخص الدروس، من أي بلد أنتِ؟

- من اليابان.

- لم أر النساء اليابانيات. أنا رأيت نساء من فرنسا وبريطانيا وألمانيا، أراهن في المجلات. إنهن جميلات جداً. ويلبسن مثلما تلبسين، وخاصة عندما يقفن على البحر للسباحة.

- ولد سلمان. أنت شيطان صغير. تحب النساء العاريات.

طفح الخجل الوردي، وقلت مع نفسي، وكيف لا أحب وقصص ألف ليلة وليلة حملت إلي في طفولتي جسد ألف جارية عارية.

ويبدو أن حديثي أشعل فيها ذات الرغبة التي تشتعل فيّ الآن تحت شجرة حديقة الزوراء فكانت أن مدت يدها إلى أزرار ثوبي، وبدأت تنقب في طفولتي لتجد تيجانا ملكية أخرى غير التي يبحث عنها زوجها الآن بين قبور أجدادنا.

وعندما انتهت.. ومعها انتهت طقوس موظفة الديوان قالت، وقد ملأت عينيها الصغيرتين بسعادة غريبة: سلمان انظر إلى تلك المقابر. هناك والدك مع السيد كيتو مارا، اذهب معهم واحفر، وجد لي منحوتة صغيرة أو حلية لأميرة سومرية وعندما تجدها سأعطيك مزيداً من الحلوى وما مارسته الآن.

رد الصبي: ولكني أخاف المقابر. إنها مظلمة يا سيدتي. الكبار وحدهم ينزلون إليها.

ردت بغضب: ولماذا جئت إذن؟

قال: جئت لأتأمل وجهك الغريب وهذا البيت الهائل، زقورة أور ـ نمو.

ضحكت كاهنة الوزارة: ألم تحن في حياتك إلى مبنى وزارة هائل؟

- لا يا سيدتي لم يكن في مدينتي سوى السراي وبيت المتصرف ومنزل الثري الحاج طالب، وتلك المنازل لا يحق لنا حتى تأمل طرازها الجميل، وكان يهود المدينة قبل أن يرحلوا يملكون منازل ذات شناشيل خشبية حين نتأملها يصيح بنا تاجر الفحم: تأملوا يا فقراء،

- فأنتم لستم مثلنا...

- تعرفون الأرقام وهندسة الأشياء الجميلة تأملوها فقط.

فنرد عليه: يا ساسون.

- ونحن أيضاً يا ساسون لا نعرف الربا والبخل وغرف الخان المظلمة ومداعبة أولاد جارك حسقيل. فينهض غاضباً ويرمينا بالأحجار، ونهرب.

قالت كاهنة الزقورة: إذن أنت لي وحدي .

قلت: نعم أنا في الآخر أكون لك وحدك.

دمعة سقطت من جفن كاهنة ديوان الوزارة نهضت وهي تعيد أزرار قميصها، وابتعدت خجلة وحزينة وعندما أردت اللحاق بها قالت كاهنة الزقورة: دعها.

قدرك معها مساء واحد، أما ما قدر لي معك فهو العمر كله.

لا أدري كيف حدث ذلك، قلت. ربما تعود غاضبة وسوف تمزق طلبي غداً وتضيع الوظيفة.

- لا تخف هي تعلقت بجنوبيتك ولمساء واحد، إنها على موعد الليلة لتناول وجبة عشاء مع شخص ما.

انتفضت بغضب وكأنها ابنة عمي أو زوجتي مع من؟

- مع خطيبها طبعاً.

- صخرة هائلة وقعت على رأسي، لفَّني صداع. سمعت صافرة القطار الذاهب إلى الناصرية وتحسرت على المال الذي صرفته على القميص الجديد والبطاقة التي انتهى مفعولها. أشياء كثيرة خسرتها حتى قلبي. إن هذه الخسارة هم يلاحقني في كل مرة. قلت: ولكنها حقيقة. امرأة من هذا الحاضر الذي طالما تمنيت فيه واحدة لا تشبه الدجاجة التي نامت على صدري وكان ريشها بارداً كالثلج.

وبحزن وانفعال قالت:

- وأنا؟

- أنت كاهنة تعرفت عليها بين السطور، ستغيبين كخيال بعد لحظات، يا لهذه الخسارة امرأة ووظيفة.

قالت: جلجامش مني بخسارتين، انكيدو وزهرة خلوده.

- وماذا تبقى إذا؟

- ابتسمت وقد نشرت في الريح أشرعتها البيض، وقالت وهي تبتعد محلقة في أفق مضيء بنجوم خجلة: سيبقى الأمل وأنا وقصيدة شعر.

ميثولوجيا معاصرة

« في كل مكان كانت توجد تيجان ملكية مذهبة، وكان بينها ما هو شديد الثقل بحيث يتعذر رفعه ».

كارل ريتر

في قصر المشرّع أور- نمو وقبل الخروج إلى حربه مع العيلاميين، جلست الآثارية كاترين وولي منبهرة من جمال الملك وسائلة إياه عن معنى أن تكون الحرب بدلاً من الجلوس في الظل وارتشاف كاس من الكونياك والبدء بكتابة يوميات تبدأ من العضلات الخشنة لعامل التنقيب "حمودي" وتنتهي بلهاث أنثوي ملدوغ في غرفة بفندق الهلتون في لندن.

ولكي يجيب على سؤالها نزع خوذته الحديدية، وعندما فعل، همس لـه كبير الكهنة: مولاي لا يصح لملك خلع عدة الحرب من أجل امرأة!

- ولكنها ضيفتي، دع الحرب الآن ولنرد على تساؤلها.

همس الكاهن إلى مساعده: سينسى الملك جيشه المتأهب أمام بوابات السور وينشغل بعيون هذه الصبية، من دعا رجال الآثار إلى هنا؟

عرف الملك همس الكاهن، وقال: القدر واحد لأي سومري ملكا كان أم من عامة البشر حتى الآلهة لها قدر فدعني أتمتع بهذه العيون.

ولكنها عيون غريبة يا مولاي؟

- فنيت نصف كنوزي نذراً للآلهة لتمنحني شيئاً غريبا ولم تفعل، أرضى أن تقتلني عينا امرأة جميلة ولا رمحاً يرمى عليّ من الخلف.

ارتبكت كاترين وقالت بأدب فكتوري: لست قاتلة يا مولاي، أنا زوجة رجل آثار.

قال الكاهن: وما هذا المعول الذي بجانبك؟

- إنه لزوجي ليوناردو وولي، وقد جاء لينقب عن سلالة كان مليكك مؤسسها وسر أسطوريتها.

أحمر وجه الملك من هذا الإطراء. انتفخت وجنتاه، تمنى ما يتمناه كل رجل شده عطرها وزرقة عينيها. كان في يدها كتاب. تلمسه بأصابع مرتعشة , وتساءل: ما هذا؟

قالت: هذا لوح من ورق دونت فيه مسرحية لكاتب اسمه "شكسبير" تراجيديا تؤدى من قبل البشر.

نحن لم نكتب في ألواحنا سوى ما نشعر به تجاه الآلهة حتى لا تظن بأننَّا نخونها.

- وتلك هي مصيبة هاملت، خيانة وموت.

- خلعت درعي كي لا أموت، فيا سيدتي ابعدي هاجس الموت بشيء من غرابة عينيك ,وما مكتوب في هذا اللوح.

قال كبير الكهنة بشفتين مرتعشتين: مولاي لا يحق لملك أن يقول سيدتي سوى لجلالة الملكة.

الملكة لاهية بقيثارتها وأحجارها الكريمة. إنها لا تعرف إني خارج للحرب اليوم، قالت وقد تضايقت من تدخلات الكاهن:

- أأمره يا مولاي أن يبتعد عنا عشر خطوات.

قال الكاهن: همس النساء يؤذي الذاكرة وسومر لم تعتد إلا على همس الآلهة. أرجوك يا مولاي لا تلبي رغبة الغريبة.

وبحركة رشيقة باعدت ساقيها ليظهر بعض من لمعان نجوم لذيذة. أغمض الملك عينيه وقد رسم الحياء على وجنتيه خطوطاً وردية مرتعشة.

- ابتعد يا أبي- سين ودعها تهمس. قد يجد مليكك في هذا اللوح الذي تمسك أشياء جميلة.

قال الكاهن: وسأظل أراقب هذا الهمس بنظراتي وإن لم أفسره سأشكوك إلى الآلهة.

ابتسمت كاترين، وبدأت تفرك بين أصابعها دمية فخارية.

قال الكاهن بذعر: ما الذي تفعلينه أيتها الغريبة؟ دعي تمثال ننار، لقد صنعه أطفالنا لحماية ملكنا في حروبه.

وبحركة أكثر رشاقة من عازفة قيثارة مدت أناملها إلى عنقها الرخامي وداعبت أحجار قلادتها اللازوردية ، وقالت: لا عليك أيها الملك ستكون بأمان معي.

ثم أخذت بيد الملك ومعا تسلقا سلم الزقورة.

"هناك ستكون خلوتي معك بعد أن مللت غطيط زوجي. سأجعلك((هاملت)) متحضر يرتقي بهوجسه إلى تلك الغرائبية التي أبحث عنها لتكون عنوان مذكراتي.

ومعاً صعدا متلاصقين كشجرتين بجذع واحد. وقفت عذارى المعبد يمسكن شموع الابتهاج لملك قرر بدل الذهاب إلى الحرب مؤانسة هذه المرأة التي لا ترتدي ثوباً سومرياً بل فستاناً أبيض شفافاً. عندما شاهد الكاهن ما خلفه لعق يده بلسانه وقال لمساعده: هات لي يا أوتو

جرة الخمر.

ترنح الكاهن من أول جرعة، وفي الثانية أفرغ كل ما في الجرة وقال بصوت عالٍ: لتمت عيلام وليعش الملك والسيدة الغريبة. ثم مال على دكة الزقورة وغفا، وأطلق من منخريه صفيراً عالياً، ذكرها بصفير منبه سيارة الدوج البطيئة التي أقلتها إلى هنا ولتلتقي بمن تحلم بمقابلته. الملك الذي شيد هذه الزقورة.

قالت كاترين وقد جلسا ليستريحا منتصف المسافة، وهي مليئة بنشوة مصاحبة ملك سومري: مولاي. في هاملت هناك حب قاتل خلق لديه مأساة اقترنت برائحة المرأة.. مأساتك أنك ستقترن بالحرب.

- هذا حديث عرافين. هو ملك. ربما تزاحم أحلامه عيلام أخرى.

- مأساته اجتماعية صرفه، ومثلما دونت في شريعتك يكون للسيف الفصل بعد التأكد من الجرم.

- كنت أظن أن الأشياء الشريرة لا تدوم مع البشر ما داموا يكتشفون أشياء جديدة.

- إنها أزلية دائمة. الخير والشر سيظلان يلازمان حياة البشر.

- أجدادنا دونوا مثل هذا في ألواح الخليقة. آه قيثارة الملكة ازدادت طرباً. ما الذي يحدث في القصر؟

التفت إلى الأرض حيث الكاهن غارق في سباق الثمالة .

- هي ألحان الغيرة يا مولاي. لقد علمت إنك معي

- هذا لا يهم. والآن أسألك: جميلة هي أور؟

كان الهواء البارد يضرب الخد الأحمر فيزيده توتراً، وكان وقوفها بانتصاب على قمة الزقورة يثير شهوة الليل، ويدفع النجوم بزحمة مضطربة لتختفي بين طيات الثوب الذي حركت الريح أطرافه وصار يرسل كما ورق الشجر إلى مسامع الملك حفيفاً موسيقياً، وهو يسرح بنظرة صوب أسواره فيما بدأ الجند يطفئون نيرانهم استعداداً للنوم. وبقيت مشاعل الخيمة الملكية مشتعلة منتظرة الملك ليضع مع قواده خطط المسير القادم ولكن إله القمر - وقد سحره وقوفهما - فتح باب الغرفة الإلهية وبإلهام مقصود دعاهما للدخول وهناك نشطت في ذاكرة الملك أمنيات فوق مستوى الزمن، وهاجت بين فخذيه رغبات طائشة جعلته يترنح نشوة وهو يخبئ رأسه في صدرها ثم يمارس إطلاق الأوامر إلى تلك الجهات المعجونة بالثلج والزبد. ورائحة زهور غريبة، ومع أول نفس هاج من فم كاترين المنتشي ، نهض الكاهن فزعاً وتساءل: أين أنا؟

قال المساعد: كنت نائماً يا سيدي. والملك وضيفته ذهبا إلى الأعلى.

- هناك سيقتربان من آنو وسيعجب ننار جمال المرأة وسيعاقبني وأطرد من المعبد. وستعود يا آبي- سين مثل عامة البشر، لا نذور، لا خمر، وستشرب الماء المالح، ما الذي فعلته

هذه الشقراء؟ اربكت الحياة في سومر كلها. سأذهب إلى الأعلى وأغرز خنجري في خاصرتها الزجاجية وإلا لن تكون هناك كهنوتية ولا حرب.

ولكنهما الآن في مكان لا يحق لرئيس الكهنة الدخول إليه.

- ستلومه الآلهة لعدم توجهه إلى ساحة الحرب وستمنحني البركات لموقفي وسأرقَّى وأصبح أنا الملك. أوتو يا كبير الكهنة هات للملك آبي –سين جرة خمر أخرى.

لكنه عاد وقد تملكه الحزن. أبعد عن فمه جرة الخمر، وأطلق نحيباً خشناً وقال: ما دام قد سمح لهما ننار بالدخول فقد أعجبه صعودهما ملتصقين في غرفة الآلهة حيث يجلب دفء النار إلى الأكتاف شعوراً بالتجاذب.

جلس الملك على كرسي صغير يتأمل كما الأطفال من نوافذ المطر قرفصاء النار المتشكلة أحزمة زرقاء في فضاء الغرفة المعطرة.

قالت كاترين: الشرق هو أن تبقى دائماً مع الخيال، ملك وعطور وتحف ثمينة. وهل كان هاملت شرقياً؟

- من الغرب من بلاد أبعد من أرمينيا التي هي أقصى ما يعرف جلالتكم.

- أقصى الأماكن نصل إليها عندما نطلب من الآلهة، ولسوف تلبي رغبتي بالتعرف على هاملت.

- هو من صنع خيال شكسبير، ولكنه موجود دائماً في كل عصر. أن تكون أولا تكون ذلك همه.

- وأنا جعلني تدخُّل الكهنة وعيلام أفكر بهذا الهاجس وما هذه الجيوش إلا لأجل أن أكون وغداً سيكون لي صراع مع عيلام لأحفظ سومر من شرها.

وبخجل وارتعاشة مفضوحة نهض الملك وتقدم صوبها وقد أرخت ساقيها باتجاه الموقد ولتردد بكلمات ممسرحة عبارة هاملت "طوبى للذين امتزجت فيهم نار الدم برجاحة العقل، فيما عادوا كالناي تحت أصابع ربة الدهر تعزف لهم ما تشاء.. أعطني امرءاً ليس عبداً لشهوته أضعه في حبة قلبي. في القلب من قلبي"..

على الصدى العذب لألقاء السيدة نسي أور– نمو المُلك والآلهة وبسهولة خلع ما تبقى من أردية الحرب وبحنو وهدوء تمدد قرب المرأة وليتحسس معها عذوبة أن يكون الرجل مع المرأة، وفيما كانت مخيلة آبي- سين تطيح بها مشاريع مجنونة وبقرار جريء قرر الصعود إلى أعلى الزقورة، واقتحم عزلة الملك، وهو يمسك خنجراً لم يجرب في جسد أي إنسان بعد، وبعيداً عما يحدث أبدى الملك رغبته بتدوين كلمات هاملت على حجارة المعبد، وقال وقد قربت إليه كامل جسدها:

إني أهيم بما تمنحه ربات الدهر تلك التي نسير بحكمتها إلى أقدارنا، نحن المبتهجين الآن

لا نعلم ما ستكون أور كلها مرهونة به في الغد. أيتها المرأة يا من ملكت حظوة الملكات في منادمة ننار. أنا لست عبداً لشهوتي. أنا عبد للآلهة وهذه البلاد. خذي لوحك الجميل ودعيني أطف في بحر ذكراك، وستظل عيناك أرقاً لأجفان ملكٍ لها لحظة عن شعبه لأنك جئت لتفتحي القبور، وعندما أيقظتني بشيء من خداع الجميلات لتقولي: أيها الملك جئتك بمرآتك الثانية – هاملت- لا أريد.

لقد أغضبت الكهنة وأحزنت جنودي، وستغتاظ الآلهة أيضاً، وأفقد رعايتها، وتضيع سلالة بنيتها بعرق الجبين.. أغلقي الكتاب وعودي.

وكأم حنون نهضت كاترين. لقد فهمت ما يريده الملك. إنه يريد أن يبقى مع عيون ننار والأقداح النذرية وصناديق الموسيقى، لكنها لا تستسلم. لقد أرسلوها لكي لا تستسلم وستلعب ورقة أخرى، وبذات الأصابع الرقيقة، أخرجت من بين نهديها كأساً من الكريستال وزجاجة خمر صفراء فهل الملك من دقة صناعة الكأس وصفاء لون الشراب. تراجع مفزوعاً وقال: هذا ثمن رفقتي لك "سم"!؟

- مولاي. هذا نبيذ من أجود الأنواع، أتوا به من اسكتلندا خصيصاً بوصية من مدير المتحف البريطاني.

- يفترض بي من يقدم النبيذ لأنك ضيفتي.

- الكاهن شرب الجرة كلها، ولم يبق سوى نبيذي، ليتضارب قدحانا. إنه تقليد مجاملة للعصر الذي أعيش فيه.

وتبادلا نخبيهما، ولأنها خمرة جيدة قال: لنتبادل النخب مرة أخرى.

- هذه المرة وحدك تحتسي ما شئت من الأقداح. الليل طويل ويحتاج كما يقول العشاق إلى الشعر.

- في الشعر قلما نمجد العشق. بل فيه نمجد الملوك والجنود والآلهة.

- والمدن. كنت قد سألتك كيف ترين أور؟

- هي السحر والأحلام الأولى، ولكنها تحترق في النهاية وستدون لها قصيدة رثاء رائعة تقول: "مرٌ أيتها المدينة طعم رثائك. أيتها المدينة التي كانت ترهب الأعداء. والآن قواك الإلهية نقلت إلى بلدان بعيدة. إلى متى ترثيك السيدة مر الرثاء وتبكي من أجلك، إلى متى يرثيك الإله ننار ويبكي من أجلك، أيتها المدينة أور، مرٌ صار طعم رثائك"

دمعة سالت على خد الملك، وقد أبعد عن شفتيه الكأس، وقال بصوتٍ باكٍ ارتجف على أثره الكاهن خلف الباب. لقد سمع لأول مرة في حياته ملكاً سومرياً يبكي: إني أرى أور في عينيك وهي تحترق.

- هذا فعل الخمرة مولاي. أور لم تحرقها عيناي بل أحرقتها عيلام ولكن بعد مئات الأعوام من عهد جلالتكم.

تمتم الكاهن بغيظ : بل أنت من يحرقها الآن إنك تُنسين الملك أداء مهمته.

ننار دفع بكلمات الكاهن إلى مسامع كاترين. وقالت وهي تعلم أن الكاهن الذي يتأهب مع خنجره خلف الباب سيسمعها.

- أنا زوجة رجل آثار، جئت مع زوجي لأكتشف ما تقوله الأساطير عن سحر الشرق، كان عليك يا مولاي ألَّا تخلع عدة الحرب وتغيظ الكاهن المتربص بي خلف الباب، لا أدري ماذا يريد غير هذا المجد. ربما يطمح أن يصبح ملكاً، وهو الذي أنقذته من التسكع في شوارع أور، وجعلته الكاهن الأول.

ارتعب الكاهن وقد اكتشفت نواياه. قال هامساً من وراء الباب: لا أقبض على خنجري يا مولاي. إنني أمسك جرة خمرك المفضل.

- لا خمر أفضل من هذا الذي أشربه. عد إلى المعبد مع خنجرك، وستحاكم غداً في بيت الحكماء وسأجردك من هذا المجد. ولتعود متسكعاً مثلما كنت لأني لا أرغب بأحدٍ غيري ملكاً.

- سقط الخنجر من يد الكاهن وبارتجاف ارتفع صوته الجنائزي فأيقظ صداه أور كلها:

- عفوك يا مليكي أتضرع بالإله ننار إليك, لم أكن لأرغب أن أكون ملكاً، لكن عيون السيدة كانت تقول: إنك الأصلح يا آبي –سين لتكون ملكاً، فملوك سومر في البدء كانوا كهنة ما خذلني غير عينيها، إني أحذرك منهما يا مولاي.

- سعدت كاترين، وقد كسبت الاثنين بعد أن ترجت الملك بالعفو عن كاهنه، ونادته وكأنها صاحب الأمر: أعد الخنجر إلى غمده يا آبي – سين وفي المعبد هناك انتظر أوامر الملك الجديدة، اغسل رأسك بالماء البارد لتزيح عنه الخمار.

امتثل الكاهن للأمر والحزن يملأ أجفانه ولكي ينزل، عليه أن يتحاشى نظرات الاستهزاء من العذارى حاملات المشاعل ولأنه لم يتحمل فكَّر بطريقة مجنونة للوصول إلى الأرض دون النزول من السلم. رمى بجسده الثقيل بعد أن أطلق صرخة مدوية نفخ على أثرها بوق النفير لمسيرة الحرب، وما أن لامس جسده الأرض الصخرية حتى تحول إلى أشلاء. تقدم المساعد صوب بقايا الجثة وهو يفرك يديه فرحاً، ونزع عن صدره القلادة وهمس: نهاية سعيدة يا مولاي. وداعاً. كان الملك بعيداً عما حدث.. بوق النفير أيقظه من نعاس العطر الذي تضعه كاترين بين نهديها. قال: كنت أحلم، ولكن البوق أفسد كل شيء. ما هذا النفير؟ لم أقرره بعد. من تجرأ وأمرهم بذلك.

- رئيس الكهنة يا مولاي.

- مرة أخرى يتجاسر هذا الوغد. لسوف يدفع الثمن وسأقطع رقبته لا محالة.

- عد إلى حلمك يا مولاي. لقد دفعه باهظاً. وهو عاقب نفسه، إذ دفع بجسده من أعلى الزقورة. ننار بعث الآن نسراً كبيراً وحمل الجثة بعيداً. وقلادة اللازورد التي تعطي لمن يخلفه أخذها مساعده، وهو الآن يهيئ في المعبد طقوس تنصيبه.

- ماكرون هؤلاء الكهنة.. وبالرغم من هذا كله تستطيبهم الآلهة فهم يلبون كل ما ترغب فيه المباركة منها والمشيئة.

- ورغم هذا تبقى أنت الأول في المملكة يا مولاي، معي ستكتشف وجودك ثم تذهب إلى الحرب لتنتصر.

- إذن لتصبحي أنت كاهنتي، وسأرجو الآلهة لتبارك ذلك.

انتشت كاترين فقد استطاعت أن تعيد الملك إليها. وباعدت ساقيها أكثر من ذي قبل وأخذت نفساً عميقاً حتى كاد صدرها المندفع برغبة كهنوتية أن يصل إلى السقف. بدا الملك حائراً. من أين يبدأ لقد كشفت له كل شيء. وقالت وهي تريد إرشاد الملك إلى الطريق: مولاي، في عصرنا الغرام يبدأ من قبلة على اليد.

وبشفتين مرتعشتين قبّل راحة اليد الدافئة، ولأن الشفتين ملكيَّتان فعذوبتهما لا تحتمل رافقها ارتعاشة قوية، نسيت أنها في مهمة أخرى. أن تلهي الملك وتومئ لرجال البعثة بنهب كل شيء، كان غراماً أسطورياً. دهش ننار وهو يرى الجسدين متلاصقين بعنف غريب , كذلك الالتصاق الذي أحدثه العراك بين سليل الآلهة جلجامش وصنيعها أنكيدو في أول لقاء لهما في شوارع أوروك. الآن عراك من نوع خاص بدأ بقبلة في راحة اليد وامتد إلى الساقين العاجيتين ومن ثم إلى الخاصرة، وهنا سرت كهرباء ملكيَّة مشعَّة اشعلت مصابيح الكلمات في الكتاب الذي تمسك به، وواصلت ترديد كلمات لاتينية، ربما هي صلاة خصب تعلمتها من أيقونات كنائس روتردام، ننار سمع كل كلامها، وطلب من خاصته ترجمة ذلك. لا أحد يعرف سوى زوجها النائم في مخيم البعثة قال الإله: أوقظوا زوجها.

آنو أشار إليه أن لا يفعل ذلك كي لا يفسد ليلة الملك. لم يحزن أنو ولا ننار لفقد الكاهن، هما الآن يملكان حسابات أخرى فيما كانت قيثارة الملكة تضرب أوتارها على صوت مغنية القصر التي أطربها خبر موت آبي- سين. لقد كان شهوانياً في نظراته حتى وهو ممتثل في حضرة الملكة. كان آنو يلاعب أحجاره في ساحة المعركة كي يضمن انتصار الملك، لكن الأحجار لم تتحرك من مكانها رغم أنه أمرها بذلك اندهش شيخ الآلهة وقال بصوته الكوني: ما الذي يحدث. قال ننار وقد مال شجناً بتلك التي تسرح شعرها في مرايا عيون الملك وعلى صدرها ينقل بيادقه وخيوله، حيث تهاوت دفاعاتها مع أول نفحة عطر جلبها إلى أنفها الزجاجي صدر الملك العاري. قال: وحدها، أحجارك ظلت واقفة لأن العالم منشغل حتى عن إله عظيم مثلك يا آنو. هذا فعل النساء أيها الشيخ، لقد جذبت مليكك إلى أحضانها وأنسته خطط الحرب كان عليه في الغد أن يذهب ليلاقي جيوش عيلام، كل أعداء سومر تريد ننار ليزيح عنها الظلمة ويكشف أقدارها ويثبت تيجان ملوكها، حتى هذه المرأة القادمة إلي أنا ولكن بريق عيون اور– نمو سحرها ولأنهما الآن في وضع بشري لم أر أكثر سحراً منه في التصاق كائنين, فلن أفسد عليهما هذه المتعة، ودع أحجارك إلى الغد عندما يفيق الملك من نشوة ليلته ولتذهب إلى أريدو حيث الإله.

- انكي ينتظرنا على مائدة الخمر الإلهية، فهؤلاء البشر - في أحايين كثيرة - رغبتهم تفوق رغبة الآلهة.

قال آنو، وقد أغاظه كلام ننار: اعتبر كلامك هذا عصياناً وانحيازاً للبشر.

- سمه ما شئت، وعلى الآلهة أن تعرف أن لا هروب من حقيقة يصنعها البشر، لقد استطعت أن تحد من جموح جلجامش وخلقت ثوراً سماوياً لأن جلجامش سليلنا، هل تريد أن تخلق آخر يمنع لهفة الاشتياق عندهما، ستهزأ منك الآلهة كلها، فليس ثمة ثور في حكايات البشر حال بين اثنين من أن يمارسا الحب.

صمت آنو وقد تصدعت كل حواسه، فالابن غير الشرعي لأنليل يمنعه - بحجة حكيمة - من إيقاف ما حدث الآن في الغرفة الملكية، أطرق برأسه وأومأ للنجوم أن تطفئ قليلاً.

- وأنت يا ننار أزح وجهك بعيداً فثمة أمر ارتأي التفكير فيه وحدي. أذعنت النجوم طائعة لأمره، وأطفأت شموع أفئدتها، غير أن ننار انبرى ضارعاً: - لا أريد أن أتركك تفكر لوحدك أيها العزيز كف عن دفع البشر للصراع والاقتتال لا بد أن يكون ثمة حد فاصل بين معركة وأخرى وليكن لحظة غرام.

- ها أنت ذا لاهب الشهوة كدأبك يا ننار، اقحمت حكمك علي فكسبت لكنك لم تطع أمري ولم تزح وجهك عني، بقيت ناصعاً تفضح نواياي، سأجمع مجلس الآلهة ونناقش أمرك.

- أنا سيد الليل وسادنه، إني أدعهما يفعلان ما شاء لهما فلن يرهبني مجلس الآلهة.

- في يوم سأجعلك تدفع ثمن تجاوزك، فأنت حقاً سادن هذا الليل، لننس الأمر ولنقصد آنكي، لنعبَّ الخمرة في معبده.

كانت كاترين ترمي بجسدها الثائر في أحضان الملك النحيل وكان تحاور الآلهة يطرق مسامعها وقد حققت انتصاراً، ثم واصلت الاستجابة لعواطف الملك النارية وحين أطلق الفجر خيوط نوره الأولى، دب النعاس إلى أجفان الملك فانسلت بهدوء وغادرت الغرفة ليقابلها الضوء، وأصوات المعاول، وليخاطبها زوجها السيد وولي:

- أين كنت يا كاترين؟ لدي خبر يسرك، عثرنا على قبر الملك أور- نمو، سأهدي قلادته إليك.

نزلت بهدوء من سلم الزقورة يملؤها ارتعاش ليل الغرام، وقالت وقد طفحت على وجهها سعادة زرقاء: حسن أنا قادمة لأرى إن كانت أسناني وقبلاتي ما زالت مطبوعة على صدره الواهن.

حبة رمل من أور

حبة رمل من أور تساوي في ذاكرة المسافر السومري حديقة باريسية بكل زهورها وعشَّاقها، في الضوء الأزرق الذي يشع من عيون بو – آبي، ملهمتي وقارئة أحلامي، التي تعرف متى تدخل القلب ومتى تستأذنه بالخروج لحضور صلاة المعبد أو لجلب ألواح لعزلتي التي أثمرت وصرت من خلالها كاتب الملك الأول وسمح لي أن أحتفظ في خزانة بيتي بنصوص الشرائع والتعاويذ وأسرار الأمراء. كان ذلك فيما مضى، واليوم حبة الرمل ذاتها تضيء في الذاكرة والعيون وتومئ لي بأصابع من الدهشة كي أحرك جسدي، وأذهب إلى الغروب الجميل وراء الزقورة متأملاً الطقوس الساحرة لعودة الرعاة وهبوط الطائرات والعزف المنتظم لشبعاد، وهي تأذن للملك بشرب القدح الأول.

تذكرت عندما امسكت القدح الأول. لم أتذكر بو- آبي ولا الفتاة الجميلة التي سكنت مخيلة طفولتي في محلة السيف، وتعلق واضحاً قلت وقد صفق لي الأصدقاء: في صحة مريام ماكيبا.

- من هي مريام ماكيبا؟

- قالت بو- آبي بعد سنوات، وكنت عائدا من رحلة طيش في مدن الضياع والأفيون.

- مطربة زنجية.

- وهل كنت تفهم أغانيها عندما أهديتها كأسك الأول؟

- كلا، ولكن الجرائد كانت تمدحها لأنها تغني عن الإنسان الجائع، والذي سرقوا منه حريته.

- في أور؟

- كلا. في أفريقيا.

ضحكت بو- آبي وهي تكتشف حماسي الفطري حركت أصابعها صوب واحدة من الجواري الزنجيات، وقالت: أعزفي لنا لحن النمور فهذا الشاب يحتاج إلى جرعة من الحب والشجاعة ليكمل كأسه.

ليلتها شربت كثيرا. وكانت المدينة تحت زحام ليالي الصيف والمقاهي المنتشرة على الفرات. المشهد تكرر بالثمالة ذاتها ولكن على شواطئ الرمل في أزمير.

قالوا لك: القدح يؤمِّن لك الأفكار الجميلة، أما الصحو فيعني لك الجوع، ونظرات القنصل

وهو يرفض أن يجدد لك جوازك.

- لماذا؟

- قالت: في كل مرة لماذا. ربما لأنك ابتعدت عن أور كثيراً، ونسيت أن الأحلام الرائعة لجنوبي مثلك لا تصنعها حبة رمل تركية بل حبة رمل سومرية.

قلت: أنت أجمل من جارية السلطان، ولكن جمالك بالنسبة لي لغز فأنا عندما أريد جارية السلطان، أومئ لها برموشي فتغير أسوار قصر الحريم، حتى في اللحظات التي تكون فيها مشغولة بتدليك أكتاف الخليفة، وأنت أدعوك بالرسائل، بالتوسل، بالتهديد بأنني سأقطع من أجلك شراييني، بأقداح من دموع مرة ولا تأتين، رغم أني ما إن فتحت عيني أول مرة حتى شاهدتك ممددة قرب أمي التي تئن من ألم المخاض.. وكبرت وكبرت معي. رأيت في ثمرة الحزن التي عوضت بها عن حلوى العيد في الخامسة من عمري. رأيتك في قراءة الصف الثالث وأنت تضحكين على تأتأتي وأنا أقرأ في الصف حكاية (القرد المقطوع الذنب) رأيتك في كتب الوعي الأول يوم قادني جنوني لأبكي حزنا ألف ساعة على موت نيرودا وسلفادور اللندي. رأيتك في زنزانات التوقيف، في غرف النساء الماجنات في ساحة الميدان. وآخر مرة رأيتك تجلسين أمامي في المقصورة النصف مضاءة بقطار طوروس الصاعد مع همومي إلى أوروبا. كل هذا ولا تأتين عندما أناديك، وحتى عندما تكونين لا أنت فلدقائق فقط. يا لهذا الحب السومري. إنه يشبه المنفى تماماً!

هي لم تجبني بل انتصبت مثل عمود رخام يرتدي ثوباً بلون العشب كان يطير فوقها سرب من طائرات الميراج تأملت في التشكيل السداسي صورة فصيل لجيش الملك أور– نمور. ابتسمت رفعت شالاً من حرير صنعته الأنوال الذهبية لعذارى أور وقالت: السلام لكم أيها الأحباب.. إن عدتم أحياء فبيوتكم وزوجاتكم تنتظر، وإن حدث العكس. صدري سيكون بيتاً وقبرا.

قلت: وأنا؟

- أتت اللحظة التي أحس فيها أني امرأة، وعندما أتأمل فيك الخوف الجنوبي أحس أنَّ تحولا ما يقودني من أنوثتي إلى حبة رمل بيضاء، أشعر معها برغبتي لأن أنام عارية تحت الشمس، وفي الضفة الباردة من فرات عينيك وهما تودعان مراكب اللازورد الذاهبة إلى عمان أو بلاد السند لتجلب لي حجر الحظ الذي يجعل الملك يهيم بي دون سواي.

وهام بك الملك الذي يملك مطحنة وأسطولا من السيارات اليابانية. اشترى لك عقداً بمليون دينار وبيتاً في الجادرية. تصوروا أن أميرة من أور تركت رمل أشواقها يلمع مع ظهيرة التمني وروايات ماركيز وذهبت في صندوق مبرد صنعته خصيصاً لأجلها شركة تويوتا. نزعت صندلها الخشبي. ورمت بعيداً تنورتها المدرسية السوداء، وقالت لأمها الباكية سأرسل لكم حوالات كثيرة، أما ابن الجيران فلا تدعوه يتذكرني فإن فعل سأرفع عليه شكوى لأنه يزعج حرم رجل أعمال.

أسمعتني أمي تهديدها. تذكرت من قال: (إن بداية كل عشق هي شمس مضاءة على روحين، والنهاية في أحيان كثيرة ستكون رمادا لروح واحدة) وكان الرماد من حصتي.

أيتها المدينة المشعة بطقوس الوهم، وشهوات الكهنة، وذكريات الحروب وعربدة الآلهة، اليوم يصفر قرب زقورتك قطار الرحيل.

كلانا يرحل إلى قدره. هي إلى أطيب أصناف المعجنات، وأنا إلى الحزن البارد في مدينة لن تودع بجسدي سوى رغبة بموت رائع، موت تكتب عنه الصحف بإعجاب.

كان قطار طوروس يسير بخطوات ماعز الجبل. يئن بألم لوجع مسافريه عندما فتحت جليستي حقيبتها وأخرجت خنجراً طُعِّم غمده بأحجار كريمة فعرفت أنها هي.

قالت: تتمنى موتاً أسطورياً لأنك خسرت معركة وجودك. علَّتكم أيها السومريون أنكم لا زلتم تؤمنون أن عشبة الخلود ما تزال موجودة. وظننت بخبرتك الماهرة أنها هي. وهي الآن تراقص صديق زوجها في حفل عائلي. بنات أور لم يكنَّ يفعلن هذا، ولكن العصر الذي يُشوى فيه الخبز تحت الوسائد وليس في الأفران تنقلب فيه الأشياء، ويفقد الجنوب بعضاً من رمله ليتحول إلى رماد سيجارة أسبين. وهذا واضح نعم. أنت لا تدري أين تستقر، في أور، أم في المدينة الحاضرة ويبدو أنك ستفقد الاثنتين معاً عندما تمرر هذا النصل على واحد من شرايين يدك.

- سيكون موتي انتحاراً عادياً.

- بالنسبة لك، ليس مهما ما يحدث بعد أن تموت. إن أور زمن للجميع، وهي لا تحتفل بك الآن لأنك أدرت ظهرك لها وصعدت إلى الشمال، أور تنظر إلى مجد من يحتفظون بضوء الجنوب في أحضانهم حتى لو هجرتهم حبيباتهم. في حياة البشر هناك من تهزمه مأساته ويموت، وهناك من يحيا لينتصر على هذه المأساة بعد حين.

- وتترك الثراء، أزياء وأزياء القرش، وتعود إلي.

- تعود حتى لو كانت ملكة بتاج. في قاموس العشق هناك ما يطلق عليه (صحوة الهوى) وعليها أن تصحو ذات يوم لتتذكر أشواقها السومرية، لأنها مهما تكن فهي امرأة من أور. حبة رمل تصور المال أنها فيروزته وجالبة الحظ فسرقها منك وكان عليك أن تكافح لتعيدها.

- براتبي كمعلم؟

- الحب لا يعود بالرواتب، يعود بفعل أسطوري، بمعركة حقيقية، بقصائد جريئة، بعربدة وصحو وجنون، بالجلوس أمام نافذتها وإطلاق الأغاني والمواويل، ويعود أيضاً عندما نعلن موتنا لأجل امرأة. كان القطار يطوي سجادة الطريق الخضراء ويحاول أن يجلب لذاكرتينا النعاس وحين نستيقظ نكون قد وصلنا آخر محطاته فنفترق، وهي التي صارت بالنسبة لي مثل مذنب هالي لا تظهر إلا بعد سنوات طويلة.

آخر مرة شاهدتها فيها كانت سكرتي فيها لا تطاق. لقد شربت بنقودي كلها. لأن شكل الحانة أعجبني فهي ذات الحانة التي جلبت منها الغانية التي أقنعت أنكيدو بترك البرية ليكون ندَّاً لفتى أوروك. حانة بحجم القلب مرسومة على جدار من الرخام. قالوا إن بونابرت توقف عندها ساعة وشرب من نبيذها الفاخر ثم قرص إحدى النادلات من مؤخرتها وسألها: هل سأعود بقيصر روسيا أسيراً إلى باريس؟ ويقال أن النادلة كانت فتاة غجرية، ولم تجب الإمبراطور إلا بابتسامة

استهزاء، فعرف القائد أنه سوف يهزم أمام الجليد المسكوفي.

مهزومان لا غيرهما في هذا العالم. أنت وقائد الحملة. أنت تركت دفء معابد الصمت وخيال الآلهة وتمددت هناك لا أحد يشعر معك بألم الأمعاء ولا أم حنون تغسل رأسك من ثمالة المنفى وبقيت تئن لوحدك. وعندما لاح شبحها أمام عينيك لم تميز الشكل الذي ولد مع ولادتك. تصورتها النادلة الغجرية وقلت بروسية مكسَّرة: هاتي قنينة فودكا أخرى.

قالت: لأجل أن أتلاشى تماماً ولا تعرفني. يبدو أنك تخجل عندما أكون حاضرة أمامك. لقد أوغلت في التيه وأن الجنوب لم يعد يصلح لينشد أغانيه في شفتيك المترهلتين، وهذا الزبد الذي يندفع من منخريك يعني نهاية كل شيء. مرة أخرى. أقول لك أيها الثمل. أور كانت تؤوي في حاناتها الشعراء والقديسين، وعندما تصعد خمرة التمر إلى الرأس تنهال على الموائد الأساطير والابوذيات الرائعة، وما تفعله الآن ليس سوى تأمل معطف غوغول وتتمناه رغم ثقوبه الألف ليقيك من البرد، ما الذي يدفع صبياً مثلك نال حظوة منادمة الآلهة وشرب الخمرة معها وشد ضفائر عذارى المعبد إلى صدره، وحرر مدن السلالات من ظلم عيلام، وأوقد شعلة معابد أريدو وأكد ولارسا، وطعم بالفسيفساء بيت حبيبته ليخلد فيها روح الفن والموسيقى.

ما الذي يدفعه ليسقط في هاوية الافتراض بأنه سيعيش من أجل الحرية؟ الحرية أن تمسك نايا وتقود أغنام أبيك في المراعي المتوجهة غرباً صوب أريدو ونازلة شرقاً على أهوار الطار والجبايش والفهود. هنا مملكة الحلم. وهناك مملكة الوهم. والحانة التي أحس فيها بونابرت بأنه سيهزم من الثلج الموسكوفي هي ذاتها الحانة التي هزمتك وهزمت غيرك من الذين تركوا أوطانهم ليعيشوا العوز رغم مواهبهم.

أتذكر أن جارا لنا توفي ذات ليلة. كنت طفلا عندما سألت أخي، كيف مات؟ قال: قتله البار.

البار اليوم هو الحانة. خليل جارنا قتلته حانة، ونابليون أيضاً. ترى هل ألاقي نفس المصير؟

في أور من يقتل بحرب تجلسه الآلهة إلى جانبها وترفض امرأته رجلا من بعده. ومن يموت في حانة سيفقد حتى متعة أن يوضع على دكه المعبد ليطمئن الكاهن روحه بمتعة الحياة الأخرى. وفي سومر من يموت بحانة لا يسمى ميتا بل يسمى (كائن وهم) ترى هل أنا وهم؟

وأمي نذرت لي أن أكون عريفاً في الجيش. ويوم صرت معلماً قالت أنه حلم لا أظن أنه قد يتحقق في يوم ما. ويوم صرت قالت: الآن تتكحل عيوني وترتفع سلالتنا عشر درجات.

الدرجات العشر صعدتها ببطء متسلقاً زقورة الحلم، وأنا أفكر بهذا الكابوس الذي جلبته بو- أبي لذاكرتي. الأزمنة ترقد في المخيلة ورمادها الأيام الذاهبة فقط وما يأتي مرهوناً دائماً، ولأن حبة الرمل ستبقى تحمل رائحة الغرين الرمادي لمجرى نهر قلبي.

فينبغي لي أن أصمت وأنا أسمع لومها لرأسي المتعب من عفونة الحانات الصدئة. فلقد رميت على صدور محظيات السلطان ليرات من ذهب وعلى أفخاذ نساء الفولغا روبلات من ورق

رديء وتوهمت أنك اكتسبت صلابة العود ولكنك في الآخر لن تجد نفسك سوى شاعر لا يفهم من هذيانك حتى الذين قالوا لك في بدء السهرة أنهم إخوان لك من المغرب.

لن يفهمك سوى سومري مثلك ابتلى بمجون آنو وأوامره القاسية بسلب حقوق غيره من آلهة. سومري مثلك يستطيع أن يكلم الغروب، بلغة الحزن فيجعله يبكي مطرا، مثلك يمسك الرمل ويحوله كرات من بلور تضيء في عيون الليل لتأتي إليك عارية، وتمد لسانها الشهي إلى صدرك الضامر فتحس كم من يقظة ينبغي لنا أن نعيشها. وذلك الوهم إنما هو مجرد وهم. والتفسيرات الأخرى لوجودنا تبدأ من الجنوب حيث أنزل الله آدم إليه قبل كل الجهات، وحيث ابتدأ إبراهيم رحلة التعب الأولى ليكتشف ذاته بعد أن اكتشف الله. عودة أخرى على الذي حدث في البدء، فقصص المسافرين لن تنتهي، وأنا سندباد، وهي الجنية التي أوصلت سفينته إلى بر الأمان، واختفت.

الخفاء لعبة لا يدركها الثملون، لأنهم مختفون أصلاً في قعر كاس التردد والوهم وأنهم في هذا السائل سيكشفون دلمون التي اختفت عن أنظارنا جميعاً، وطافت على السطح بدلاً منها مدينة والت ديزني. وقرار لن يكون قراراً إن لم أقرره أمام أمي البصيرة، ولأن المشهد الرائع لموتي الأسطوري لن يكتمل إلا وأمي تنظر إلي بعينين دموعهما دم وفيروز. وما دامت هي لا ترى الآن فلن يكون هناك موت. فما تقولين؟ لقد راجعت نفسي، وخيارات المسافر في لحظة عنفوان القرار ستكون بطاقة إياب. أنا لست محروماً من الإياب، ولكني حتى في وطني أحس بمنفى القلب الذي تعلم منذ طفولة حرف الحب المعقوف على وسادة جدتي وحكاياتها الألف. والحب اشتروه بما ملكوا من الأوزان الناقصة، فكيف سأقف أمام أمي وقد نسيت حتى ارتداء جوربي المثقوب؟ إني مفلس تماماً، ورغم هذا أعود، ولكن شرط أن لا تكوني أنت موجودة. عودتي مرهونة برغبتي لإثبات شيء ما يمت بصلة للرمل الذي دونت عليه بداياتي كعاشق وها هو طوروس ذاته يعود بي ولكن بدونها. وعليَّ أن أكمل عودتي من الجسر العباسي وإلى نينوى على ظهر بغل، لأن سائقي شاحنات الزيت يطلبون أجراً بالعملة الصعبة. وصلت نينوى تأملت ما في نمرود من طبائع شمالية. أردت أن أشتري لأمي شالاً فلم أستطع، فمضيت متوجهاً إلى الجنوب. وهذه المرة سيراً على الأقدام رغبة مني أن أصل إلى أور كمحارب لا كراكب سيارة أجرة وعندما لاح لي أفق الزقورة الشاهق كانت هي هناك الأميرة الخضراء المزينة بضياع أعوام كذبت فيها أمي قسراً ودرجت اسمي المهاجر في البطاقة التموينية وكان اللقاء الأخير. رؤى مبتكرة لحدث سقراطي.. الفلسفة فيه ما حدث في غرف المعبد السرية. تعريت حتى من جلدي وهي فعلت ما فعلت تماماً. وعندما اقتربت مني وحدث العناق. ارتجفت هي وصمدت أنا. كنت أشم فيها رائحة أمي وذلك الفيض الأبوي لطياري تشكيل الميراج السداسي. أحدهم سقطت طائرته في مياه الخليج أمام جزيرة خرج الايرانية ورأيت قرص هويته يتدلى من صدرها.

قلت: عشيق أخر من ضحايا حروب الجنرال.

قالت: ضحية وشهيد آخر.

قلت: ما أكثر الضحايا والشهداء في الجنوب!

قالت: ومعهم يقف القديسون والشعراء والمعلمون.

هزتني المفردة الأخيرة. قلت:

- من يعيدني إلى وظيفتي؟

قالت:

- خذ كف الرمل هذا، وتوجه صوب الناصرية، واذهب إلى مدير دائرتك. أره كف الرمل هذا. وسترى. سيهمش على طلبك بأن تعاد إلى وظيفتك فوراً.

قيامة إبراهيم

الأرض الخضراء التي يسيل منها الخمر لعاباً من فم الآلهة هي الأرض التي أتحدث عنها هكذا بدأ كاتب اللوح مدونته، ثم برع في الوصف عن الأشياء التي ندركها بأرواحنا فسنجد لها أشياء كما الأطياف تسبح في ذاكرة عارية، وتقربنا من أنو، من الوردة، من صدر امرأة لم تكتشف بعد فستان الزفاف، وقال الكاتب وقد ذيل نهاية اللوح باسمه أود- ماري- بأنها أرض تضيء كما النجوم في أمسيات عزف القيثارات، حيث أرى عشتار ترتدي ثوباً من العشب، وبرز نهداها مثل كرتي البلور وقد ركبت سيارة فورد فارهة بيضاء وأمسكت منظاراً لتشاهد سباق الخيول السومرية في الواحات الصافية والواقعة جنوباً في الأرض المباركة التي خطط أنو بقلمه المدبب ليضعها ويرسم مدنها الفخارية، أور، أريدو، لكش، لارسا أوروك، مدن أخرى، ولكن دلمون كما قال الكاتب لن تفتح أبوابها إلا للقادمين من أور حيث يسمح لمن يجعل من ننار ملهمة أن يدخل الجنة دون تأشيرة ويرى رجل شرطة بواباتها الحدودية، وأول القادمين كما روت الأسفار الأولى كان أبراهام وقد ترك وراءه عمراً بمئات السنين ليدخل هذا الفردوس المزدحم بالألوان، لكن ثمة كآبة ما , لازمت الشيخ، وقال وهو يحن لعصاه التي أخذت منه حيث لا تتقوس ظهور من يعيشون هنا. أن هذا الفردوس مثل القفص، جنة بلا مدن لا أحبها، ودلمون دون صحارى لا تطيب لها نفسي، لكن أحداً لم يسمع أول الداخلين وحين سأل وأين جدي آدم؟ ألم تكن دلمون مثواه؟ كان الرد: أن آدم اختار وبمحض إرادته بيئة متروكة فوق قمة الثلج في هندرين.

قال إبراهيم: أنا عكس رغبات جدي. ينبغي أن يكون فردوسي جنوبياً، أن كان هذا العالم الأخضر المليء بالطواويس تسمونه الجنة، وبعيداً عن حزن الشيخ استمر أود- ماري – يصف الموجودات السحرية لهذا العالم، وكتب: أن الموجودات التي فكرت الآلهة بصنعها عجنت من ضوء وعشب وموسيقى، فالجميع هنا يعزف بعذوبة ومهارة، حتى الفراشة الصغيرة تستطيع أن تصفر بفمها المدبب لحناً أوبرا ليا كالذي عزف يوم فتحت قناة السويس حتى بات الجميع لا يصدق بقدرة عصا موسى على شق البحر.

تغرد الطيور في هذه الأرض بشدو طلسمي، لا تفهم معناه سوى الآلهة التي يمنعها غرورها وكبرياؤها أن تفسر ما تنطق به الكائنات الأخرى، ولهذا ظل أبراهام صامتاً لا ينطق سوى بما تعلمه من أسواق أور ومدارسها، وعندما فكر بأن يجعل لغة سومر هي لغة الآلهة. اعترض الجميع، وفضلوا الإشارة المبهمة والنظرات العميقة لتكون اللغة المدرسية وهي ذاتها التي تطبعها الآلة بسبابتها على ألواح الاسترحام التي يقدمها ساكنوا دلمون عندما ينقطع ضوء مصابيح القراءة عن البيوت بسبب عطل فني وفسر السبب أن أنو كان يطارد واحدة من حوريات الفرات ليفعل بها ما يشاء فعثر بالكيبل الرئيسي وقطعه فمن يجرأ كي يعيد ربط سلك عثر به كبير الآلهة؟

وبقيت دلمون مائة عام من دون ضوء، وكان ليلها، ليلا للشموع والنجوم. وفي المائة عام

هذه أنجبت ملايين الشعراء وكتاب الألواح والقديسين كل هذا كان يحزن أبراهام، ولكن ما العمل؟ أن دلمون المثوى الأخير لكل قديس، وبالرغم من هذا أن في دلمون لغة واحدة، والكلمات التي تقرأها مدونة على أوراق الشجر أو على الجدران الرخامية لقصور الصفوة الميتين من البشر تحمل في معانيها حمداً لا ينتهي للرجل الذي ألبس الهدهد ربطة عنق وعلمه نقل التحيات الخاصة من سليمان إلى بلقيس، وهو ذات الرجل الذي اكتشف طريقة إضافة الماء البارد إلى الطحين كي يمنع سقوط الخبز من تنانير أمهاتنا النحيفات اللائي تركن أزواجهن في حيرة الحجابات ومارسن النواح والغناء عادة مزدوجة لقضاء الليل بدون رجل، وغير هذا فالمكان يتسع لكل ما يقال، حتى الصمت يحسب هنا على أنه صراخ من أجل شيء نريده، مزيداً من الحلوى مزيداً من الخمر، مزيداً من الخبز، مزيداً من النساء، لكن أحدهم خالف هذه النداءات المعتادة وصرخ: مزيداً من الحزن. في ذات الوقت كان أبراهام جالساً تحت سدرة المنتهى يذرف دمعاً زجاجياً نقياً كالذي يصنع منه قلائد الماس المزيف.

قال: وقد وصف المدون بكاءه على أنه تناغم أشياء ساحرة. أصوات مثل هديل الحمام يقاطعها صوت قطرات المطر على معدن أملس. بكاء بحجم اللوح الذي أكتب فيه إليكم يا أجيال أور القادمة ليصل إلى آخر بيوت المدن السومرية.

- وأنت يا من ترغب بحزن، ما الذي فعلته بدنياك؟ تساءل إبراهيم.

- لقد قضيت كل حياتي مبتسماً، لأن أنامل الجواري الزنجيات والأرمنيات يدغدغن خاصرتي في كل حين، وكانت أمي تسقط حبات العنب في فمي المفتوح من بعد ثلاثة أمتار، وأنا مستلق دون حراك. أدخلوني هنا لأني السعيد الوحيد في أور، وكل الذين تستقبلهما دلمون يحملون على أكتافهم أحلام الحروب، وبعضهم تم تصليح الثقوب التي فتحت في صدورهم من شظايا تلقوها في حرب مع أيلام أو مع جيوش الروم حينما اندهش الفرس والسومري من طائر الحديد الذي يطير فوق رأسه، فقد كان يرمي ويختفي ورغم هذا ثبتت خيول سومر في الميدان وأهدت إلى نساء أور وأريدو والمدن المتمتعة بحب الآلهة رغبة بالبقاء خالدين هنا في دلمون أو على أسطح البيوت الجنوبية للمدن التي عرف الله كيف يضعها في صدر الخارطة الكونية حتى تتألم ومن ثم تستطيع أن تبدع.

وقال المدون: أن السعيد الذي طلب مزيداً من الحزن كان يرتدي سترة موشاة بخيوط من ذهب لامع وقمص فان هاوزن وفي معصمه ساعة سويسرية. سأله أبراهام عن الوقت؟ رد السعيد السومري. حسب التوقيت الصيفي لساعة بيغ بن هي الثامنة إلا ربعاً حيث تطلق المغنيات رتابتهن من المذياع فيدمدم سائقي السيارات في الطريق الإسفلتي بين أور وأكد عندما يمنعهم جنود السيطرات الباحثين عن الشطب المتعمد في دفاتر الخدمة من السماع ويرغمونهم على جلب أشرطة الساهر واحد لمتعة المسافرين وآخر لمتعة آمر السيطرة.

ابتسم إبراهيم تذكر الوقت في سفره الأسطوري بين أور وحران. لم تكن هناك ساعات رادو. كان منشغلاً بصوت جبرائيل وهو يحثه على التجوال الدائم وعندما أضاع في واحدة من جولاته دفتر خدمته احتجزه فرعون مصر مائة عام ولم تخرجه سوى رؤيا صادقة كان قد أخذها من يوسف الذي سيأتي بعده بمئات الأعوام، فأطلق سراحه وعاد إلى تجواله الأزلي يرفع اسم (الله) وسط كفيه فتضاء سماوات وسماوات فيستغني عن الطاقة التي كان آنو يولدها لتضيء حياة البشر

فلم تعد حاجة لإصلاح الكيبل الذي تعطل بعثرته فما دام أبراهام حل هنا، فالنور معه أينما حل وارتحل، ونحن معنا التأمل:

كتب المدون حيث راح مرة أخرى يبدي دهشته من هذه الموجودات المنتظمة بتراص متقن حيث البيوت تستقيم مع نظرات العيون وتلغي زوايا النظر، الكل واضح أمامك، وعندما ترغب أيها الساكن بممارسة طقس توحد أو الكتابة فليس المعبد هو من تأوي إليه، لقد ألغيت فكرة أن يكون هناك مكان تقترب منه إلى الصرح العلي وعوض عنه بظل النخلة، ذلك الظل البارد الذي افترش عليه أبراهام عباءته ووزع حصاه وقرأ بخته أولاً: ومرة أخرى أطلق دمعتين من مقلتيه، ولا أدري لماذا يبكي رجل في الفردوس وقد اكتمل كل شيء هنا وتعلم أصول الحياة بأبهتها؟ كانت هناك دروس عن كيفية مصاحبة النمور في النزهة، أو ارتداء ملابس السهرة والرقص الكلاسيكي، الرسم بدون ريشة، ودروس التجميل والعناية بالأظفار عندما رغب إبراهيم بتعلم صلوات الناسك المنعزل.

أجابوه برد قاس: أترك الأشياء الأرضية، أنها لا تصلح نمطا لحياة دلمون، قال: إذن لقد فقدت الفردوس الحقيقي. ومرة أخرى رمى الأحجار على القماش الخشن، فلم يجد بختاً يخلصه من رتابة القديسين عندما يحالون على التقاعد، ففضل موتاً آخر، لكن من يدخل دلمون كما قالت اللوحة الضوئية الهائلة: لن يموت مرة أخرى، ويبدو أن أبراهام أيقن أن الموت الآخر هو ولادة أخرى وبهذا اليقين كما يقول المدون: اجتمع مجلس الآلهة لهذا الحدث الخطير، فالرجل بعصاه، وبرفضه ارتداء ملابس السهرة يحاول أن يخرق الأنظمة ويولد إحساساً لدى الساكنين برتابة ما يسكنون. وقالت عشتار وقد انتهت للتو من مداعبة أفخاذ واحد من حراس أبيها: أن أبراهام وإن سكن الفردوس فنحن لم نخلقه حتى نستطيع أن نغير مداركه والخطأ ينبغي أن يتحمله من أذن له بالمجيء. انظروا إلى آدم ونوح. لقد اختاروا أمكنة غير دلمون لأنهما يعيان ما سيحدث وهو ما حدث لنا مع إبراهيم، أقترح أن تزال دلمون عن الوجود، ومن توده الآلهة من البشر وينتهي قدره الزمني. نسكنه في حانة وسط حديقة أرضية لا يراه فيها أحد. نعم نسكنهم منفردين حتى لو كلفنا ملايين الحانات فوجود أبراهام في هذا الفردوس مع الحشد الهائل من الذين قدَّموا لأور الخدمات الجليلة يعني أن ثمة نفساً متحمساً صوب التغير.

قال: أنو وقد ملأه الغيظ والكبرياء: ما الذي يريده أبراهام غير هذه الحياة السعيدة؟ اسألوه إن كانت أورشليم وأريحا وبطاح الجزيرة قدمت لـه فطوراً من أجبان لافاش- كيري وعسل النحلة الملونة. اسألوه هل ارتدى في ترحاله إلى مصر بنطلون جينز أو انتقل من بيته إلى بابل بسيارة بورش سوداء هنا نوفر له ما حرم منه بالأرض فليحمدنا وبصمت.

لكن أبراهام لم يصمت. ظل يردد أنه يرغب أن يعود حافياً وقد رسمت له الطرقات وحدة الهاجس والتكوين الذي أشار إليه أود- ادد- با ، ووصفه بأنه الضياء الذي يكسونا الرغبة ويمنحنا الرؤى ويأخذنا بعيداً إلى عالم أكثر صمتاً من قبر قديم. هذه الصورة التي وضع ليوناردو وولي تحتها خطا أحمر يوم اكتشف اللوح ضمن ما وجده في المقبرة الملكية بأور. وكأن المدون كان يعلم بتساؤلاتنا فأضاف إلى المعنى رؤيا مقنعة وتحدث عن قبر قديم لم يلتفت إليه أحد في الأرض ففضلت الآلهة أن تخلد من سكنه فحملته بتحدبه وتابوته إلى دلمون، وليتأمل ساكنوها الرفاة الصامت ويتذكروا الهدوء الخالد لحياتهم الثانية حيث أمر أنو هذا الصباح بخلط الحليب بالكاكاو في وجبة الفطور وأن يقدم الديك الرومي مشوياً بعدما كان الفطور عصافيراً صغيرة تجلب من

الأرض بحجة أنها ستخلد في دلمون، لا يغريك فيها سوى ريشها الملون ودموعها المضيئة في الصحون المقدمة على الموائد.

أمام هذا القبر وقف إبراهيم, فقد كان يعرف ساكنه. إنه السومري الأول الذي تحدى جلجامش يوم أراد أن يتخذ من حبيبته خليلة له، فكان أن هوى على رقبته سيف الملك القاسي، وبعد لحظات كانت هي تمزق شرايين معصمها بشفرة حلاقة نوع جولييت وعندما سمع جلجامش طلب أن يحلق ذقنه بذات الشفرة التي قطعت فيها شرايينها. تلك حكاية القبر والموت الأسطوري لأول عاشقين من الجنوب وتلك هي حكاية القبر القديم فدلمون مليئة بالحكايات وهي لا ترغب بمن ليس لديه حكاية. أن قيمة الحياة فيها تكمن في حدث ما لأي من ساكنيها، ولهذا ترى ليلها مليئاً بالمسامرات وبين حكاية وأخرى هناك مجرى لدموع الجالسين، فسرت على أنها دموع فرح يستفاد منها بعد تعبئتها في علب بلاستيكية وتصدر إلى الأرض مياهاً معدنية مباركة، وحدها دموع أبراهام كانت تجمع في أوان من ذهب، وتباع على الحضرة البابوية بالعملة الصعبة فالآلهة عرفت كيف تغزو السوق، ولهذا قرر إبراهام أن لا يبكي لكنه لم يستطع، فكل حكاية في دلمون تدفعك إلى البكاء، فمن حكاية القبر القديم إلى ذلك الذي وجد من يشارك زوجته فراشها، إلى الذي احترق حقله وبعضهم دفع ظلماً إلى سراديب مظلمة لانتمائه إلى حزب الخضر والحفاظ على البيئة. بعضهم بحكاية غامضة لكن الوضوح يبان عندما يأتي ذكر امرأة ما، فكل شيء في دلمون يعود إلى امرأة ما، حتى إبراهيم في جلسة الظل هذه كانت تنتصب فيه أشياء تصور أنها خمدت مع تقادم العمر، لكن دلمون تمنح البدن الفتي ولهذا ينبغي لك أن تفعل هذا بعد كل وجبة طعام، وكل حورية تقدم إليه كان يدعوها لتعزف له وتغني وبعد هذا يقول شبعت. الآلهة طلبت منه يوماً أن يتوسط هذا الصدر العاجي الذي اعتنت بتكوير نهديه عشتار عناية خاصة طمعاً في ذرية جديدة.

قال لقد: جعلت ذريتي في الأرض، لأن أشواقي لم تكن يقظة في ذاكرة الآخرين، ولكنه على كل حال ليس خطأ أن تنشأ مدينة وبشر يولد بين الألف من أبنائها شاعر واحد، وهذا يكفي، فلا أريد أن أمتحن مرة أخرى وأقرب نصل السكين من رقبة ولدي، دعوني، قال المدون فتركوه، بقي أبراهام مائة عام منشغلاً بصوت الحورية الساحرة وفجأة، وفي ليلة عاصفة لم تشهد لها دلمون مثيلاً، وكان سببها شجار سكر بين الآلهة.

قال أبراهام وبصوت خجول ومتردد: اقتربي إلي فقد انتصب فيَّ ما يدعوني على إنجاب ملة أخرى، فهذا الشجار بدأ يقلق خلوتي، ونامت من تفننت في خلقها عشتار، وفي الصباح وقد انطوت في ليلة واحدة تسعة شهور خرج إلى عالم دلمون طفل يضيء كقمر صاخب وقد نمت تحت أجفانه أنواع الزهور الغريبة، وعندما حرك أصابعه تحركت أفلاك عشرة ورقصت قرب رأسه وقيل أن مذنب هالي أهداه ضوئه كي يحميه من الخلف أينما ارتحل. إنها الولادة الأولى في هذا الفردوس الذي لا يتوالد الناس فيه، فكيف حدث هذا؟ فعندما طلبت الآلهة ذلك من أبراهام كانت تمازحه، فالظن أن شيخا بعمره لا ينجب أبداً حتى لو كان بدنه بدن شاب في العشرين، فكانت هذه الولادة كارثة الكوارث.

فغدا ينتهي كل شيء في دلمون وتعود الحياة أرضية كما حلمت بها أجيالنا يوم أرادوا أن يخلقوا لعالمهم السومري حياة مفعمة بالحب والاشتياق إلى الأفعال النرجسية، تلك التي نحسب بها أننا نمتلك جنوباً أجمل من لوحات رسامي عصر النهضة. الارتباك الذي أحدثته ولادة الطفل جعل الآلهة تكف عن الشجار وتعيد ترتيب أوراقها بهدوء لتقرر ما يجب عمله.

قال أبسو: ننزله إلى الأرض ونرميه في الفرات ليصبح القاع قبراً له، لأنه لا يملك حكاية.

قال ننار: أرميه على سطح قمري حيث لا هواء فيختنق.

قالت عشتار: أرضعه من ثديي فيعشقني وأعشقه، وسرعان ما أمله مثل الآخرين فأدس له السم في واحدة من قبلات السرير فيموت.

قال أنو: كلكم تفكرون بالموت طريقة للتخلص من الرضيع، ماذا لو كان فارساً قوياً مثل أنكيدو؟ ما العمل؟ ستقولون: سيبارزه جنود الآلهة ويهزمونه، في ذلك مهزلة بالنسبة لنا كآلهة، اتركوه ينمو ولتكن المسألة تحديا، سيكبر في كنف والده وسيعلمه الحكمة فليس لها فعل السيف ولتسرق عروشكم. سوف أرسل إليه في هذا الصباح آنية مليئة بالحليب الطازج من ضروع جواميسي المقدسة حتى ينمو سريعاً ولنراه ماذا سيفعل؟

قال المدون: أطرقت الآلهة رؤوسها مذعنة لرغبة كبيرها وفي أفئدتها شعور ما، أن هذا الطفل سيبقي على كل شيء وبعيداً عن سني الطفولة القادمة، راح المدون يسجل في سياحته مشاهدات ساحرة، فالرؤى هنا تكمل بصورة حسية فكل ما نراه يختفي في لحظة، ولكنه بعد ثوان يعود بصورة أجمل. أن دلمون تعي قدرتها على سلب اندهاشنا فهي تعني جمالاً يسعد القلب ومن ثم يمنح الجسد قدرة على التحرك في الاتجاهات التي ترغب بها الآلهة، فالحياة هنا تبدأ في منتصف الليل عندما يكتمل تجمهر النجوم فوق رؤوسنا، وعندما يضرب الوتر أغنيته المفضلة فتنساب الأضواء على الأجفان حبالا من حسرة ووجع إلى شيءً نرغب به فدلمون لا تعطي كل ما نريد إنها وإن كانت تسقينا الخمر واللبن، لكنها تمنعنا عن بعض ما نحتاجه. الورق والحبر مثلا لأن هذا يعني أفكاراً جديدة، وحتى أبراهام كان يدون على جدار قلبه ويحفظه غيباً. وحده الطفل خط بأنامله الصغيرة على الرمل ما رأته الآلهة أمراً مخيفاً. لقد كتب كلمات حمد ولكن ليست لانو الذي أرضعه من حليب جواميسه المقدسة ومما دونه نقرأ:

(أيتها الرؤى وجِّدي مع الرمل قواك وابعثي إلى أور الإشارة ثمة أضواء علينا أن نخمدها وأن نقترب منها وأنتم أيها المفرطون بحساسية الغناء الصلوات من أجلكم معجزة والحنين إلى جنتكم فراغ. الذي يأتي ينبغي أن يعود في الذاكرة طيبة يكون خلوده رائعاً الحمد لمن قال أنني أولد لأصل. الحمد لمن أمسك الموجة. وصنع منها شراع الحمد، لمن وفق بالجمع بين الحلم والوسادة، وأثمر ليلة حبا أزلياً يشارك الأرغفة حنينها إلى الجوع. وما هذا الزبد والعسل والزيتون إلا خديعة توهمناً ببطلان الولادة، فالإنسان يولد كي يولد من جديد وليس يولد كي يموت في دلمون خالدا.

أيتها الرؤى أقيمي مجد الرمل على صفحة الماء والشمس ودعي مجدك يرتقي إلى منصة الروح. أقيموا الصلوات لمن يموت بجرح، لا لمن يموت بكأس. ضعوا دلمون وراءكم، أضيفوا إلى الجنوب جنوباً آخر ليكتمل العد التنازلي لاكتمال وجه أور القمري، وليفتح الضوء على أجفانكم قارة أخرى تستقبل من سومر ضياء الكلمة البهي، ولنقدس إبراهيم عندما يعيش في واحدة من بيوتنا. لا تتركوه في المنفى وحيداً. إن الحياة التي اكتسبها هي حياة ناقصة إذ حرم عليه أن يسمع غناء الصيادين ونواح أمهاتكم اللائي فقدن أنصاف قلوبهن في الحرب الأخيرة لأميرنا الجميل أور نمو.

أيها الرمل هي قيامة إبراهيم فقف بذرات من ضوء وعجين، واسكب على أقداح نذور المائدة الملكية ماء الوجه. أطرد من مخيلتك صورة الآلهة المتغطرسة، واشكر من حرك الريح على مثوى الكلمة وجعلها تنمو مثل السنبلة. القمح لمن يأتي معي والدمع لمن يبقى). إبراهام ذاته ارتعب من ذلك الخطاب الخطير ولكنه عاد وشعر بسعادة. لقد حقق في نقطة واحدة ما لم يحققه مع الملايين الهائلة على وجه الأرض. نهض وغادر ظله الأبدي ليتأمل في الرمل وهج الكلمات الرافضة.

قال المدون: الوقت في دلمون تتداخل فيه الأضواء، والليل والنهار لا يتعاقبان. إنهما متداخلان في زمن واحد، ولكي ترى في الليل لن تشعل شمعة، ولكي تنام في الظهيرة لا تطفئ مصباحاً. إنك ترى دائماً، وها هو إبراهيم يعطي ظهره للآلهة، يمد سلما خشبياً من أول حرف دوّنه الطفل على الرمل ويبدأ بالنزول مفردة.. ومفردة.. وإلى أن يصل إلى آخر الخطاب يكون قد ودع دلمون نهائياً ونزل الأرض.

الركام الفخاري للزقورة الشاهقة.

"لقد منحت أور ملكية لكنها لم تمنح حكماً أزلياً.. فمنذ قديم الزمان- منذ أن وجدت الأرض وحتى تكاثر الناس- من رأى قط ملوكية دامت في الحكم إلى الأبد؟"

ابتسمت الآلهة، وتشفت بالنبي الذي ترك الفردوس وعاد إلى مدينته ليجدها محترقة، وقال آنو: هذا درس لإبراهيم.

قالت: عشتار الطفل هنا لنلقنه درساً أيضاً، نعيده إلى أور.

قال: آنو وهو لم يولد في أرض حتى يعاد إليها وفي ذلك مصيبة. خذوا هذا الخنجر واجتمعوا سوية واغرزوه في صدره الصغير. إبراهيم بكى على صغيره، وندم على نزوله، لكن صوتاً ما.. هتف. قال المدون: وهو صوت ملاك خارج عن طاعة الآلهة.

- لقد أخطأت وتركت دلمون.. لتجد مدينة محترقة وتترك ولدك تحت رحمة المؤامرة. هم يتقدمون الآن صوبه.

كانت خطا أقدامهم الهائلة تسمع في أرجاء الأرض كلها. ظن البعض أن زلزالاً هائلاً ضرب الأرض، لكن الصورة انكشفت لهم من سقف سماء واسعة بدت مثل أكبر شاشات العرض السينمائي. وبدون لمسات إخراجية متقنة تقدم الممثلون لينفذوا مشهد قتل ولد إبراهيم وعندما دنا الخنجر من صدره، شملته العناية الإلهية فتحول الجميع إلى حجر.

ابتسم إبراهيم وصلى ركعتين لنجاة ولده مرة أخرى وعاد يصعد سلم الزقورة ليتطلع إلى أور المحترقة ويفكر ببنائها من جديد.

حدث هذا في فندق

أيها السادة. نحن في عصر غريب. الإبداع للفقير وحده. الفقر قبل الوصول إلى القمة. بخطوات يتخلى عنك وتلك واحدة من حسناته. كثيرون من لديهم مطبوعات ولكنهم يعيشون مع قبعاتهم فقط. الفرص, كل هذا مقترن بالفرص. لقد تغير الوضع ويبدو أن كل عصر يضع لموجوداته ترتيبات خاصة وأهمها ما يخص الثقافة. هذا ليس إنشاء لحشو النص. إني أضع النقاط على الحروف في حكايتي فأنتم تعرفون أن لكل إنسان غربته ستجدون أن ثمة اشتياق عاطفي ما, حتى للذي يملك دزينة أبناء. بعضكم غربته تتصل بالمال ,وبعضكم بصعوبة النشر, وكثيرون هم مشتاقون إلى هواء اسطنبول أو كتابة رسالة عتاب لعبد الله الصغير في باحة قصر الحمراء بغرناطة. وأنا مثلكم غربتي تتجمع فيها كل هذه الاشواق ولكي أتخلص من ثقلها على صدري أطرحها على الوسادة وأخنقها فعندما تقتل فيك رغبة ما ستجد بدلاً عنها أملاً صغيراً يضيء مثل فيروزة ضاحكة ليتحول في ليلك الطويل إلى حلم بحجم كف دمية ومعه تسير على أرصفة الوهم لتتبضع حاجياتك، كتب، معلبات، زجاجات جن، طحين نمرة صفر، أقلام، كاسيت أغاني نجاة الجديدة، قميص، بدلة مودرن، أشياء نحتاجها رغم أنها فوق مستوى الراتب ولكن الفلاسفة يقولون أن حب الحكمة هذه جعلتك تتغذى بالخيال وتشبع وإلَّا كيف بقي بوذا يعيش ثلاثة آلاف عام في صومعته ولم يتناول سوى أوراق خضر عرفت بعد ذلك بورق الشاي.

الأحلام صيف المشاتي ورغبة في تحقيق نسبة واحدة في المائة منها, حملت قدمي وتوجهت إلى كافتيريا فندق المنصور لأتذوق طعم الشاي فيها وأتأمل الوجوه الجميلة للنادلات وأراقب بدهشة توريق الزبائن وهم يدفعون أثمان وجبات الغداء, وعندما يترك أحدهم الباقي بقشيشاً أتحسس المائتي دينار التي جلبتها معي من الناصرية فيطمئن قلبي ,لأعود مرة أخرى واضعاً رجلاً على رجل. أفتح كتابا في البنيوية وتفكيك النص. والحق أني لا أستوعب من كل صفحة سوى السطر الأول أما الباقي فهو استغراق كاذب وتبجح أمام تلك الغزالات الأنيقات وأولئك المتكرشين الذي أقلهم يملك معمل طابوق. تقدمت النادلة الخضراء صوب أناقة الانكستر ويبدو أن شكلي السومري أعجبها وبفطنتها العجيبة عرفت من أنا وقالت: يبدو أن السيد الوالد يلح عليك بارتياد سوق البورصة لتعرف أسعار اسهمه؟

قلت مندهشاً: تقصدين أنا؟

- نعم والدك زبون دائم وكريم أيضاً.

تذكرت والدي النائم في ثرى النجف الآن وآخر راتب تسلمه قبل موته كان ثلاثين ديناراً، ابتسمت، الله يرحمك أيها الطيب، أي بورصة تريدني أن أذهب إليها؟ إن أسهمك ظلت واقفة في مكانها فالناس هنا في هذه الصالة لا تتعامل بحضور المناقب الحسينية ومشاركة الناس أفراحهم

وأحزانهم و لا يعرفون صفة اسمها عامل في البلدية. الناس هنا شيء آخر وهذه المتبطرة تتخيلك واحداً من أباطرة الشورجة ورغم هذا يا والدي أطلب عفوك فأنا محتاج إلى الجمال لأن العوز والإفلاس حرمني حتى من حبيبتي لأنني في نهاية الأمر لن أدفع سوى العشرة دنانير ثمن قدح الشاي. ستظن أني بخيل وستحاول جذبي في المرة القادمة ويبدو أنها راهنت علي.

لا شيء أخسره لقد قبلت الرهان.

فبعد أن دفعت العشرة دنانير احمر وجهها وشكرتني على حاتميتي الطائية. كان الخجل يعتصر كل ملامحي وبارتعاشة مفضوحة غادرت المكان وكانت تظن أن كل ما حل بي هو إعجاب أعادها إلى زميلتها طائرة من الفرح. أما أنا فطرت من خجلي، من وضعي الطبقي من هذا الحزن الذي يجعلك تتحايل حتى على الشيطان لتحصل على إيفاد من دائرتك كي ترى بغداد أولاً وتوفر من مبلغ الإيفاد ما يمنح أطفالك سعادة مضافة وأنت تشتري لهم خمس كيلوات طحين أبيض تخفف به سمرة الخبز وشوائب الذرة والشعير الخشن، وإن بقي خمسة وعشرون ديناراً فنادي المنتدى موجود وقنينة بيرة واحدة تعيد إليك خيالات الأمس. أيام كنت بمائتي دينار تحاور سقراط في الميدان الرئيسي بأثينا وتصادق بسهولة السائحات السويديات وتعود محملاً بالقصائد التي كتبتها على ساحل فارنا و أنت تشرب القهوة في ذات المقهى التي استراح فيها نابليون قرب براغ، ولكنها دعابات الحياة القاسية التي يفرضها عليك العالم بسادية غريبة. ولماذا؟ لأن رغيف الخبز في بلدك كان ثمنه خمسة فلوس فقط، وكنت تستطيع أن تشتري المقامات بأجزائها الأربعة والعشرين بثلاثين ديناراً فقط، وإنك تستطيع أن تحلم بالمجان وتتزوج بألف دينار تمنحها لك الدولة سلفة بالأقساط المؤجلة. وهذه الغزالة الملونة بالنظرات الخادعة تبني على أكتافك آمالها المليون. وها أنت تعود إليها مرة أخرى بعد أن أبدلت قميصك وبنطالك بما يتناسب مع لهفتها لتدس لك ورقة صغيرة.

- أيها السيد الذي لم أعرف اسمه بعد. نوبتي تنتهي بعد ساعة. انتظرني في حديقة الفندق إن رغبت.

وفي الورقة ذاتها دونت بخطوط سومرية ضاحكة: الانتظار اشهى فاكهة في فم الرجل؟ ويبدو أن كلماتي أثارت فيها كل شيء فتمايلت راقصة وهي تمشي وكادت الفناجين الفارغة تسقط لولا أن نبهتها زميلتها قائلة: انتبهي جيداً أيتها الولهانة.

في حديقة فندق المنصور كان الخريف يرطب ذاكرة الشجر بأنفاسي , والبرد يلبس الظهيرة معطف التمني . إن خيالي القادم من الجنوب يفترش لهفة الوصول إلى مدينة بحجم أحلام شبعاد. مدينة لا تعرف فيها سوى القيثارات. ربما هذه الغزالة تأخذني إليها ولكي أقضي الوقت المتبقي ، تحضرت لحواري معها وبنيت لشخصي الفقير هالة مصطنعة وما إن اقترب ظلها تواريت وراء الشجر كي لا يراني زملائي الأدباء فيرموني بقصائد الحسد أو يتصعلك أحدهم ويقول لها من أكون أنا بالضبط. قلت بخجل شتائي: مساء الخير. لا أعرف ماذا أقول ولكنك فهمت من ورقتي ما أريده وكان ردك رائعاً.

ارتبكت شفتاي. يفاجئك الإعجاب وبالعاصمة يا إلهي يبدو أن زيوس وقف إلى جانبي، انتشيت فالمرأة تفعل بالرجل فعل السحر. صدقوني ازداد وزني أنا النحيف.. واختفى من أمعائي

مغص سببه اللحم المستورد لشاورما مطاعم الصالحية وزال من رأسي صداع الوقوف في قاعة الانتخابات المزدحمة. اختفى كل شيء ليبقى وجهها المدور مثل ماعون صيني في الظهيرة الباردة.

قالت: الخجل بعض من وهج الرجال. أرى في عينيك خجلاً.

أتشجع وأقول: فيها شيء من الخوف. هل توقعت مجيء السيد الوالد؟

- لا تخف هو ديمقراطي جداً ولا أظن أنه سيعارض رؤية ولده مع أنثى.

قلت: ولكنك أنثى من زجاج وأبي - رحمه الله- عفواً- أطال الله في عمره – يغريه الزجاج كثيراً حتى أنه يتمنى أن يحطمه كي لا يلمسه أحد غيره.

ضحكت وقالت بلذة تشبه طعم القبلات في أبي فوق الشجرة .أنت تعرفه جيداً.

قلت مع نفسي وأنا أوجه ناظري صوب أور المقدسة: نعم أعرفه.

وأعرف أن زنوده مدت أول سكة للحديد في المدينة وأن أجاثا كريستي أيام التنقيب مع زوجها ماكس مالون في أور والوركاء كانت تسميه (مستر تايكر) أبي كان نمراً في كل شيء وخاصة عندما يطبق الليل على أسرة رجال بعثة التنقيب ولا تبقى سوى تنهيدة المدام وعواء الذئاب البعيدة. كان أبي يجلس وسط عيوني ليقص بفحولة حكايات أعجب من العجب كادت أن تسمعها.

- يا إلهي شخص ما يتحدث وسط فمك هل أنت مرتعب؟ المدلَّلون يخشون النساء مرة تحدث لي ابن تاجر عن معاناته مع الجنس الآخر وقال أنَّ أقرب أنثى له بعد أمه هي مادونا. تعجبت وقلت: كيف؟ قال: لأنها الوحيدة التي تبتسم لي دون أن تكون موجودة كحقيقة وذلك يتيح لي أن أتخيل معها أي حالة. أنتم جيل الفيديو لا تحلمون سوى برزم النقود والأفلام المستوردة، نحن مجرد نادلات دفعنا لكم الزمن وشهادات التخرج من المعاهد السياحية ولكننا مع هذا نملك قلوباً مرهفة تعرف من تختار ولقد اخترتك أنت.

أبي قال ما لم يذكره مالوان في مذكراته. القنفذ تعمد شطب اسم والدي من المذكرات لأنه جاء ليسرق قبور ملوك السلالات وليس ليسمع إعجاب أجاثا المفضوح بأكتاف والدي وهو يزيح التراب والحجر عن وجه التاريخ قال: أجاثا قالت لي في ظهيرة قائضة: مستر تايكر هل تعلم أن قلب الأنثى مرتبط بسلك من نار مع رأسها؟ افهم القصد. مستر تايكر أنت بدأت تمشي على هذا السلك دون أن تسقط.

قلت: ولكنه من حق مستر مالوان.

- أوه مالوان حبيبي. ولكنه مشغول بدمى الآلهة ورأس العنزة العاجي وخواتم أورنمو والأختام الأسطوانية.

- وأنا أعمل معه.

- من اليوم أنت تعمل معي فقط. إني كاتبة, أكتب روايات كبيرة فيها حبكة وموت وجرائم. مستر تايكر ستكون أنت الفتى الذي سيحل اللغز, لغزي أنا. إن أكتافك هذه تستطيع أن تحمل هذه الزقورة العملاقة. أنت إذن من يستطيع هزيمة العصابة.

ضحكت نادلتي الجميلة وهي تراقب استغراقي لتمتد يدها الناعمة كالمرايا وتسحبني برقة طائر: لنمش قليلاً. يبدو أن الوقوف يثير فيك الذكريات. مرة أخرى أتعجب. أبناء الأغنياء لا تشغلهم الذكريات. فهم قلما يتذكرون، لا شيء كبير في رؤوسهم يجبرهم على استعادة الماضي. لهم يومهم فقط وطموح بغد قادم.

قلت وقد أردت إيصالها إلى سواحلي: هل سمعت بماكس مالوان؟

- ممثل؟ مغني روك؟ لاعب تنس؟

- كلا إنه منقب ورجل آثار.

- وما شأنك به؟

- كنت أستعيد ذكرياته.

- أنت مهتم بالآثار إذن؟

- أبي كان مهتماً بها.

- أوه. إنه جامع تحف، يا إلهي ربما هو الآن ملياردير وليس مليونير. أعرف أن أصغر قطعة أثرية يتجاوز ثمنها المليون دينار. كم قطعة يملك والدك؟

- مدينة هائلة كان قد وجدها ذات صباح هل تعرفين شبعاد أو كما تسمى بآبوأبي؟

- لا أعرف سوى أنها ربما اسم لواحد من مطاعم الكرادة.

- أبي هو الذي وجد حليها والقيثارة التي كانت تطرد عن قيلولتها الضجر هناك في مدينة اسمها أور.

- يا إلهي أنت تقودني إلى أمور أجهلها. قل لي أي مطرب تحب؟

- اسمع ما يذاع.

- أي لون؟

- الأخضر دائماً.

- لماذا؟

- لأنه لون العشب.

- وأي يوم تحب؟

- السبت.

- لماذا؟

- لأنه يوم الفقراء. فالأمل يبدأ من السبت.

- وهل تعرف الفقراء؟

- نعم من أكفهم والخشوع الذي يملأ أعينهم.

- يبدو أن العلاقة معك معقدة. ظننت أنك لا تملك سوى هاجس الأثرياء الذين أصادفهم كل يوم. السيارات. الأفلام. العطور. الملابس، والأهم من ذلك كله سعر الصرف. أنت مختلف؟ وهل يقبل السيد الوالد أن تفكر هكذا؟

- أنا أجبره. نعم أجبره فهو الآن لا حول له ولا قوة.

- لا بد أن السيدة الوالدة هي صاحبة الكلمة الأولى وأنك ولدها المدلل.

- والدتي ظلت طوال حياتها تردد كببغاء: حاضر يا أبا نجم. أمرك يا أبا نجم. خدامتك يا أبا نجم.

ضحكت ملء فمها وقالت مندهشة: وهل يسمي الأثرياء أسماء أبنائهم مثل هذه الأسماء. هل اسمك نجم؟

- أخي الكبير اسمه نجم وقد سرقته الحرب التي صنعها المهيب المتعجرف لأقدارنا التعسة.

- وكيف.؟ ألم يستطع نفوذ والدك سحبه إلى الوحدات الخلفية؟ أنا بابتسامة واحدة جعلت أخي يخدم في وحدة ثابتة ثلاثة أرباع خدمته العسكرية.

- أبي لا يريد ذلك. الواجب هو الواجب حتى لو وسط أتون. ثم نجم اسم جميل أليس الذي يضيء الليل بلمعان فضي اسمه نجم؟

- ولكنه قديم. قديم جداً فحيث ولدت الأرض ولد النجم. ألا تحس أن كل شيء في العالم بدأ يتغير حتى الأسماء؟

- ولكن النجم يبقى النجم دائماً هو الأجمل.

- لأنه أخوك؟

- كلا لأنه الضوء

- كفانا من الفلسفة. حدثني عن الحب. ماذا يكون شعورك عندما ترغب بك أنثى؟

- تهتز كل أعمدتي وأسقط مغشياً علي، وعندما أفيق أكون أمير من ألف ليلة وليلة.

- هذا رومانس رائع.

- نعم سيدتي. عندما ترغب بي أنثى جميلة مثلك أجد المبرر الكافي لولادتي.

- وهل شعرت يوماً بعدم جدية ولادتك؟

- كنت قبل هذا اللقاء أشعر بذلك.

- السبب الضجر طبعاً.

- كلا يا سيدتي هي شحة الموارد أولاً. ثم هذا الإحساس العجيب بتفسير الأشياء الذي يمنحنا الجنوب إياه.

- شحة الموارد ماذا تقصد؟ وأي جنوب؟ بيتكم في الجادرية كما أظن وربما السيد الوالد يهددك بحرمانك من الإرث. لأنك لم تطع رغبته. ربما يريد إرغامك على الزواج من بنت شريكه كي تجتمع أموالهما معاً فعندما تفرض عليك امرأة لم ترها في حياتك تصبح علاقتكما جحيماً مما يضطر أحدكما إلى ارتكاب عمل أحمق. ورغم ذلك.

لا تخف. والدك ذو قلب طيب. سوف يرضخ لرغباتك. فأنت في نعومتك هذه لن تحتاج سوى إلى ملاك. ألا تراني ملاكاً أمامك؟

- نعم يا والدي ملاك. ليتك الآن هنا لتتحدث إليها.

- وأين هو الآن؟

- إنه معي. إني أستحضره دائماً بروحه. بطيفه، بجسده الشامخ مثل زقورة وقد نفض عن أكتافه تراب المقبرة الملكية ليتوجه صوب قيلولتها في ظل البيت الطيني ليقدم لها هدية تساوي اليوم ملايين الدولارات فالسيدة أجاثا أغرته كثيراً إذ وعدته ببذة افرنجية وأمسية بدار الأوبرا تعزف فيها القيثارات السومرية وترقص أمامه عذارى المعبد وها هو يعثر على كنز ليتقدم بخطى بطيئة وحذرة كي لا يراه رئيس البعثة المستر ليونارد وولي وزوجته القاسية وليهمس للسيدة النائمة: سيدتي جئتك بهدية جميلة عثرت عليها للتو في المقبرة رقم 800 للملكة شبعاد. انظري قيثارة برأس بقرة، اربطي أوتارها الآن واعزفي لي تحت ظلال الزقورة كي أعفي نفسي من مشقة مصاحبتك إلى لندن كي لا يموت أطفالي من بعدي جوعاً.

فتحت السيدة عينيها بذهول غريب وقد أذهلتها جمالية القيثارة لتنتصب أمامه مندهشة وبلا شعور ألقت بجسدها إلى أحضانه لتشبعه قبلات وكلمات شكر. شكراً مستر تايكر إنك رائع في كل شيء حتى في هداياك ولسوف أنسج من وتر هذه القيثارة روايتي القادمة اكتشافك هذا سيحل اللغز حقاً ولد الإنسان هنا.

قالت نادلتي الجميلة: عن أي شيء تتحدث؟ هل أنت منوّم مغناطيسياً، أم في رأسك نشوة خمر؟ وربما أثرَّ فيك الأدباء في الفندق، إذ جميعهم نزلاء هنا لأن انتخاباتهم اليوم.

قلت: نعم الأدباء وعيناك والقيثارة وحكايات أبي وأشياء كثيرة كلها أثرت فيّ ولكي تعرفي

المزيد سأقول لك الحقيقة.

- أي حقيقة؟!

- حقيقتي، أنا الوهم المصنوع أمامك. أنا مثلهم جئت للاقتراع. قادم من مدينة اسمها الناصرية أعترف أن هذه الظهيرة هي حلم من أحلامي الخرافية وأني مستعد لأقبل كل عنف منك لأني كذبت.

كلا أنا لم أكذب. أنت أغرقتني في وهم قميصي الجديد وشبه بيني وبين رجل ثري ظننتني ولده، ورغم هذا أنا مستعد بعد ألف عام عندما أثري أن أدفع لك تعويض خسارة هذه الساعة الرائعة من عمري وعمرك. لأني سأعود غداً وستكون عيناك حارساً لتأملاتي أياما طويلة. وبعد هذا أستغفر الله وأنساك والآن إما أن تعذريني أو تصفعيني.

تقدمت صوبها. وكان وجهها يضيء مثل شموع ناحبة وتحت أهدابها تعزف القيثارة التي أهداها أبي لأجاثا. كنت أتوقع منها رداً عنيفاً فكان أن أطبقت شفتيها على شفتي فساد الظلام بعد أن أسدلت الستارة.

مرثية إلى رومي شنايدر

حاشية أولى: هذه التفاصيل حدثت في ذات حرب أجبرت لأكون في واحد من محارقها لكنها لم تكتمل بسبب استهزاء رفاق الفصيل وعدم تصديقهم لقصتي برغم أن كل ما رويته لهم كان حقيقياً.

كان الغيب في أول مرة شيئاً إلهياً. اليوم مجرد حدس. كنت أمتلك حدساً أنك ستغيبين ذات يوم. إن وجهك إضافة إلى خطوطه الجمالية المذهلة كان يحمل رغبة للتخلص من هذا العالم الذي ربما لا يليق له أن يخزن في صناديقه عيوناً فيروزية كالتي تملكين. من قراءتي المتواضعة في الكتب المقدسة وعلى لسان حواري السيد المسيح (إن الله يبارك الجمال) فمن إذن خلق الجمال غير الله؟! ومنها عرفت إن المرأة عندما تمجد فيها الحس تصبح شفافة مثل جنح فراشة.

وتصبح فولاذية عندما تريد إرغامها على طرد هذا الحس ، ويقولون الأفعال الأنثوية الخاصة هي رغبات روحية. أمَّا الأفعال الذكرية فهي جسمانية. لقد أيقنت أني سأوصل حدسي إليك بعد أن أمنحكِ صورة واضحة عن إحساس يليق بشاعر يفكر بعد عصر من البحث، التوجه إليك وإخضاع موجوداته لسلطتك الساحرة.

عندما شاهدتك في طفولتي أول مرة تمثلين على الشاشة البيضاء أصبت برعشة وإغماء ولما كبرت غادرني الإغماء ولكن الرعشة ظلت تلازم جسدي النحيف. ويوم دفع إليّ ديوان آرثر رامبو لأول مرة وعلى وجه الغلاف طبعت صورته الطفولية، عرفت أسراراً أخرى للجمال وربطت كل ما قاله بكِ برغم تباعد الأزمنة فأنتما توأمان ,فالشعر يتخذ جمال المرأة مدخلاً لا بد منه. إننا دون امرأة وقصيدة نعاني من سوء التغذية ونصاب بالكساح, والذين يملكون نساء جميلات من دون شعر إنما يملكون فقط تحف من السيراميك الملون، ستكسر مع أول شجار حول موعد الذهاب لحفلة رأس السنة. هي تريد الذهاب مبكراً لتغيظ المدعوات بجمال معطف الفرو، وهو يريد أن يوصل هدية خليلته قبل الذهاب مع حرمه إلى الحفلة. أعود إليكِ بحزن ودمعة من زجاج. أعود برغبة لابتكار ما كان مفقوداً. وإليكِ أيضاً تقودني الملائكة وإضافات أخرى حاولت بها صبغ جدار الرتابة الذي يسور حياتي ويرميني منزوياً فوق ربيئة جبلية وأعاني من شحة التدفئة وتراكم الكتب ومواعيد بث البرقيات وغير ذلك أجالس العجوز بورخس لأقول له:

- أيها السيد ثمة رؤى لا ندركها إلا عندما نغمض عيوننا. يبدو أن عدم الإبصار في بعض الأحيان نعمة فأنت لن تقدر على استحضار من تهوى بكل تفاصيلها إلا عندما تغمض عينيك.

قال: إني لا أتصور امرأة أجمل من بوينس آيرس وربما ليس هناك أجمل من شهرزاد.

- اليوم حملت الجرائد نبأ وفاتها منتحرة . أنت تعرف أن الهنود الحمر اولئك الذين سلبهم

كولومبس قدرة الغيب يمكنهم استحضار الروح بالجلوس أمام النار المقدسة وقراءة تعاويذ يجلبها طائر أسود.

- لن تأتي إن روحها ما زالت طريَّة وهي الآن ربما منذهلة من الفردوس الآخر.

- الجنة أم النار.

- لا أظن أن الله يصنع جمالاً بهذه الهالة والكبرياء ويرميه في النار.

- في طفولتي شاهدت فلم يوليوس قيصر ليلتها حلمت أن كليوباترا تحترق.

- بالعكس هو الذي يحدث في الحلم فقد وهبني الله نعمة عدم الإبصار متأخراً كي أمتع دواخلي بصور نساء جميلات ربما هي واحدة منهن. الجمال لغة ليست غريبة على الشعر إنه مثل الزيت مع شرارة واحدة يصنع حريقاً هائلاً.

ودَّعني الرجل وغاب في الأودية المظلمة مثل سراب نجم منتحر. وهل تنتحر النجوم؟ نعم عندما تيأس من الحصول على وعد من امرأة. لقد خفت الضوء في عيني يا سيدتي ترى هل يخفت معها الشعر في قلبي؟ إن حدث هذا سيكون لزاماً عليّ أن أشتغل بقالاً بعد نهاية الحرب , ناسياً بذلك عصراً من انفجارات اللاوعي , وعندما تسألني واحدة عن سعر العدس سأقول لها إنه مثل سعر الحدس تماماً. ستضحك وستحاول مثل اللائي يعرفن نظراتهن قبل صدورهن وقتها سوف أتذكرك لكن العالم سيهزأ بي عندما يعلم أن بقالاً يحبك حد الجنون برغم إنه يعرف أن أول المنتحرين يوم رحلت مارلين مونرو هو إسكافي في إحدى قرى الصين النائية.

أنا لن أفعلها لسبب بسيط لقد قضيت كل هذه السنين متحاشياً الرصاص القادم من الربيئة المقابلة في الجانب الاخر فكيف أطلق الرصاص على جسدي؟ والشجاعة التي أمتلكها من أجل فقدانك دونت فيها هذه السطور؟ السطور خطوط الوهم التي يزف عليها الشاعر عرائسه والطرقات التي تسير بموازاة أحلام البشر إني أتذكرها، في طفولتي كانت الخطوط لا تستجيب لخربشات أقلامنا برغم عقاب المعلم. حرف الدال لن يستقم على السطح. ومفردة (دار) تظل تأخذ وضعاً مائلاً كأن الدار تريد أن تتهدم لكن نظرات الإشفاق من عيوننا تمنعها من السقوط وتجاوزه إلى (داران، نار، نور..) وأنت؟ كنت يقظة الطفولة سعيت فيها لتحطيم كل دمى الطين آهٍ يا حياتي ، في رغباتي المليار توهمت أني أمسكت رمشاً من عينها فلن أمسَّ غير سراب ورقة قراءة خلدونية. فلتعد إلى ذلك النفق الأسطواني تجبر أشواقك على التراشق مع نظرات النساء المتسوقات ذوات النظرات الرمادية. وحدها نظراتها خضراء. وحدها نظرتها من تثقب الماس لتصنع منه عقداً لمأتمك الرائع واليوم الأخير. وبعد ذلك سأتحول إلى تساؤلات في السياق العام للأشياء. تجاريك النصوص وتحذلقك التجارب والأصدقاء الجدد لا يعرفون إنك عندما سمعت بنبأ رحيلها بقيت تبكي طوال الليل وتقرأ اخماتوفا. اخماتوفا عجوزتك حزينة قصائدها هالة من الثلج ودمعة سرية تبحث عن مأوى للبكاء هي أيضاً حاولت الليلة، بكت سراً مثلي وكان لصوتها الثقيل وقع الرعد، وبرغم هذا كانت تتحدث عن جمال عينيكِ كمن يتحدث عن ربيع يشاهد لأول مرة.

قالت اخماتوفا: الشعر يلوّن الوجوه برغبة التحرر ووصف الأشياء وأول ما ينبغي وصفه الشيء الجميل. تذكرتك. كتبت لك رسالة وهمية. أيتها المتدلية من سقف حياتي، ثريا من مرجان

مضيء. لماذا لا تصبحين البحر وتغرقيني.. وفي رسالة أخرى قلت: إن الحزن صار هذه الليلة خيطاً من دخان لا أدري أين يذهب ولكنه يسير في الاتجاه المعاكس لسكناك. يا للحزن كم يليق به أن نسميه الموت. نعم الحزن هو الموت.

قالت اخماتوفا: الحزن رعشة الشعر أما الابتسامة فهي الكرسي الذي تجلس عليه ملكة الشعر.

قلت: هذا عذاب آخر سيصبح ليلي مظلماً ولكنهما عيناك ستضيئان كل شيء وسأكتب. يقولون: إن الخيال يولد من بذرة الوهم.. هذا الوهم عبرت به المسافات كلها لأصوّر لكم ما حدث، والجدة اخماتوفا؟ وداعاً أقول لك جدتي. سمعت ذلك. فنقلت خطواتها على الثلج كمن ينقل أنامله على مفاتيح بيانو أثري.

الحرب تمنحك حرية التخيُّل. وإزاء امرأة رائعة ليست هناك افتراضات. هذا الصباح وصلت مطار شارل ديغول. انحنيت لاسم الرجل وخلعت خوذتي فكلانا مقاتلُ, لم يستغرب ركاب الطائرة من البدلة المرقطة التي أرتديها، تصوروها موضة وما أكثر الموضات في هذا العصر. كنت بلا حقائب سوى دفتر صغير فيه آخر موقف قتالي: شوهد شخصان في الجانب المعادي يترصدان سرايانا تم معالجتهما بهاونات 82 ملم ولاذا بالفرار.. صعدت إلى سيارة التاكسي, رغم أني لا أملك فرنكاً واحداً، وبنظرة ثاقبة غريبة رآها مرسومة في عيني، ابتسم السائق وقال: حسن سآخذك إليها. كان صامتاً حدثته بالإنكليزية التي تعلمتها من الشهر الأول في كلية الآداب التي هربت منها بسبب الفقر وجمال الطالبات فلم يرد. تذكرت ما فعله الإنكليز بالعزيز نابليون فعذرته. صادف مروره قرب المسلَّة المصرية. طلبت منه التوقف. توقف وأوقف عداد السيارة – يا للنزاهة! كان الجو لطيفاً، انحنيت لأقرأ ما دونه الفراعنة على الحجر من ضجر الملوك وتدخلات (ر ع) والكهنة في شؤون الدولة. وفي الأفق كان برج إيفل يمتد هائلاً صوب سماء بغيوم مرتعشة. قارنت بين حجر المسلة وحديد البرج فملت إلى الحجر لأن شموخه باستقامة ثابتة وله قلب ينبض. وايفل مجرد حديد ربط بصامولات ومصاعد صدئة. في مراصد الأهوار. أبراج الترصُّد تشبه برج إيفل. المصادفة جعلت هذا. ولكني مع المصادفة أجلب في إجازتي قصائد جاك بريفير لأقرأها لأني أعرف أنه الوحيد الذي يتحمل لسعة البعوضة في الرقبة ويسعده أيضاً أن يستمع إلى نقيق الضفادع في الماء الآسن، رجعت إلى السيارة تمنيت أن يمر الرجل بالحي اللاتيني ويبدو أن الرجل قرأ رغبتي وربما هو نفس سائق سيارة الأرزاق فقد كان مثله يعرف رغباتي ونحن ننزل من المرصد إلى مقر الوحدة يتركني أقطف الورد وأكلم العشب وأسأل الرعاة عن أسماء الينابيع , ولماذا يخرج الفطر مرتدياً قبعات بيض بعد المطر مباشرة رأيتهم في الحي اللاتيني أبناء ما يسمى بالشرق، سيرك كبير تعرض فيه الشعوب فقرها وبضاعتها الفكرية. أرسمك بفرنك واحد يا سيدي. بفرنك أعزف لك مقطوعة بدائية. بثلاثة فرنكات أتعرى أمامك موديلاً زنجياً لثلاثة ساعات. بعضهم يفرس ابراً في جسده ويرسم منها زخرفاً دموياً. آخر يقول الأشعار بلغة مندثرة. وشيء من مدينة القمر الناصرية كان يباع هناك , فقد وجدت واحداً من أبنائها يبيع حزنه، ميداليات عبارة عن قلب دام شطره السهم إلى نصفين. توجهت إليه لاشتري فقال الواحد بخمسة فرنكات دفعت إليه ورقة نقدية من فئة العشرة دنانير ما أن رأى الورقة حتى ذهل، حدق في وجهي لقد عرفني لقد رأيت الخجل في عينيه يصير بلاداً من العشب. فجأة رمى القلوب المعدنية من يده وتوارى هارباً في زحام البشر ولكي لا أنساه كان بيتهم في محلة السيف إني أتذكره. قالوا لقد ذهب ليدرس

الكومبيوتر . أشياء دعونا منها الآن ولنذهب إليها. في الحياة أشياء ينبغي تفسيرها من أول نظرة ويبدو أنني ضحية النظرة الأولى وكنت لا أنظر إلى صورتها بملء عيوني إذ كنت أخشى من بريقها لذا أتأمل وأنا مغمض العينين، قال بورخيس: يملؤنا الشعر غربة عندما يكون جيداً بينما تملؤنا عيون النساء الجميلات منفى. قلت: ذلك يعني احتفاء بالجمال، الإغريق لا يتذوقون الشعر إلا عندما تنشده العذارى قال: نعم العذارى. لأن العفة والشعر هما خمرة زيوس المفضلة. يوليسيس في عودته كان يحلم بها.

أوه هذا فعل مدهش إن قدرتي على التصور إنك تحتضنين يوليسيس قرب قاعدة سارية المركب لا يضاهيها تصور. إنه خيال تلوّنه شتى إيقاعات العالم، عزف قيثارات محطمة، طبول عائدة من حرب، دموع شهداء ساقطة في قعر من الفضة، خطوات أطفال على عشب طري، مزامير لتوراة مكتشفة حديثاً، صراخ أجنة الأنابيب، إيقاعات لها وقع أقدام الفراشات على ورود حجرية. كلها تتفق ليخرج الصدى سمفونية تعرفها البجعات جيداً. تلك التي أجبرتنا لنتعارف برغم الطقس منتظرين دفء النهد. ولكن النهد لا يأتي لجائع إنه يذهب إلى هناك إلى من يلبس ربطة عنق ملونة ويلوك الخبز الأبيض بلذة تشبه فرحة فقير عندما تشعر راحة يده أن ثمة ورقة نقد أسقطت فيها وليس عملة معدنية. مرة كتبت إليك وما أكثر ما كتبت إليك لا تقولي هذه مراهقة إن عمري أربعة عشر عاماً ولكني أشعر أن هناك خللاً في توازن الرؤى سببه قلبي، لقد عشقت فيك هذا البؤس الذي جنيته من سلالة كان جدها الأكبر يحمل قِرَب الماء من النهر إلى بيوت صحراء الخميسية أنا الوحيد الذي قرر أن لا يزور قبر جده لأنه أورث والدي الحزن وأنا الندرة الوحيدة التي تجاوزت قانون الأشياء. وفكر بامرأة فوق مستوى النظر ومعها فكر بامتلاك ناقلة نفط من أسطول أوناسيس وفكر أيضاً بمراقصة الليدي ديانا، ومرات تمنى أن يكون عقداً في صدر المغنية صباح فقط ليظهر في التلفزيون كي يغيظ بنات المحلَّة اللائي يعتبرن سمرته المعتمة زنوجة. قالت له واحدة ذات ليلة عندما اشتهت أن تلعب معه لعبة العرائس إن رائحتك تدفع عمر الفتيات إلى نضج متقدم لماذا لا يجربن ويشممن صدرك. شعرك المجعد هذا عندما تداعبه يد أنثى تثار فيها كل الغرائز، كم هن غبيات سأنقل لهن غداً ما جرى الليلة من طقس عجيب لذلك الكائن الخرافي الذي اسمه الحب. وجاء الغد ولم تتقدم أية واحدة إلى دعوته للعبة ليلية. وتلك الصبية جاء أعمامها في اليوم الثاني ليزفوها عروساً إلى قرية نائية في الأهوار. آه حتى من اكتشفت لهفتي إليك سرقتها تعاستي لن أزور قبرك يا جدي بل سأزور قبرها، قال السائق غداً ستكون مراسيم الدفن لقد كشف الطبيب عليها وقال لا داعي لنقلها إلى المستشفى لتنقل إلى الكنيسةفي الغد.

إن نومة ساحرة كهذه ينبغي أن يتأملها العالم ولو ليوم واحد.

سمعت يا جدي أنت عندما مت, من تأملك؟ أمي قالت ذات يوم لم يتأمل جدك سوى السقاة وإقطاعي المنطقة الذي رمى على جثته عشر بيزات وقال اشتروا له كفناً لو كانت قربته بيضاء لجعلناها كفنه وبرغم هذا ادفنوها معه لا نريد أن نبقي ذكرى لميت إني أخشى الموت. الموت ذلك الأديم الأزرق معه تصورتك شكلاً لأسطورة قديمة عندما أعود إلى مدينتي بعد أن أقبّل رأس أمي وأعطيها كيس الحناء الذي جلبته لها من الشمال وبعد إجابات مختزلة لتساؤلاتها أتوجه إلى أور وإلى معبد ننار إله القمر. سيفهم القصد وسوف لن يساعدنا خوفا من غضب آلهة العالم السفلي، فأتوجه إلى اريدو ومدينة الإله انكي.. وفي حضرة انكي سيجري ما يلي:

- قال انكي.. حذار من الحزن لأجل امرأة لأن هذا يعني في منطق الآلهة موتاً من

الصعب بعثه.

- قلت: هي جميلة مثل إينانا ولها دلال عشتار ويقارنها الغرب بافروديت. تمايل انكي مشتهياً وقال: لا شيء أجمل من حكمة رجل في جمع من الرعية قلت: تبدلت الرؤى والمكاييل، لم تعد الأختام الأسطوانية بوابات لمعرفة العالم. اليوم الطائرات ومركبات الفضاء وعطر الشانيل.

- كل هذا لا يعني شيئاً إزاء قدرتي على استحضار ما أريد.

- أعدها إذن.

- إليك؟

- كلا إنني لا أحتاجها بسبب وضعي كجندي أمامي عشرات الهجومات المقابلة وربما سأجد لي قدراً سماوياً.

- دعني أمنحك خلوداً يحفظك لنهاية الحرب.

- لا. لقد علمتني الحياة أن القدر هو حلم الإنسان الدائم وما كتب سيصير.

قال: نحن الذين ندِّون على الجباه الأقدار.

أقول: وربما أنت من دفعها لتأخذ هذه الكمية من الحبوب المنومة.

قال: نعم لقد كنت أعشقها ورفضتني ذات يوم, رغم أني أبديت المساعدة لشبيهتها اينانا وأعدتها للحياة وسوف أكافح لتبقى.

- إذن لقد غادرتك حكمتك يا سيدي.

- لتغادر فلقد ورثت منها شيخوخة وعصا يمسكها حارس الآثار وقدرة على كتابة رسائل الحب وحالما تذهب سأباشر بكتابة أول رسالة لها.

قلت: هي في العالم السفلي الآن؟

قال: نعم سأهبط إلى هناك الليلة لأسلمها بيد مرتعشة خواطري وأنا أعرف (ايريش كيكال) آلهة الموت ستحتجزني انتقاماً لمساعدتي اينانا. لا بأس, قدر الحكيم أن يكون الضحية من أجل الأشياء الرائعة. أن تكتب لرومي شنايدر رسالة حب وتوصلها إليها. ذلك شيء رائع.. إني أغادرك الآن. ثمة دكة صغيرة في الجانب الشمالي من المعبد، تعودت أن أكتب فيها طلاسم حكمتي للبشر هناك نبت البردي ومنه سأجلب أوراق رسائلي وداعاً.. وعندما تعود إلى جبل قنديل لتحكي لرفاقك ما حدث هنا فلن يصدقوك. لكني حكيت لهم ما جرى ,قهقهه الجميع ساخرين غير مصدقين، وباستهزاء ومتعة قال أحدهم:

- أكمل ما الذي جرى لك في باريس بعد ذلك، لقد تحركت السيارة من الحي اللاتيني متوجهة إلى شقتها.

ساردانابال والحزن في نينوى

قبل مائة عام انتهت حربنا مع الغرب، وبمناسبة الذكرى المئوية لهذه الحرب سمحت السفارة الفرنسية لمن يحب رامبو وهيجو وميشيل ديغي من العراقيين أن يدخلوا أراضيها بتأشيرة سفر سياحية ولمدة أسبوع واحد على أن تكون باريس هي المدينة الوحيدة التي يزورونها، وثمة شرط آخر فرضته الحكومة الموقرة، غرامة ألف فرنك على كل من يطلق من المشار إليهم أعلاه حسرة أمام لوح سومري أو آشوري على جدران اللوفر، ثم عادت وأعلنت بأن الأجنحة التي تحوي آثار بلاد الرافدين ليس لهم الحق بزيارتها، فالأمم المتحدة لم تسمح بعد بذلك ويبدو أن فقرة من عقوباتها تحرم على العراقي أن يمتع عينيه بمسلَّة حمورابي أو يتطلع مليًّا بوجوه آلهة سومر ويتبرك بها، فربما يعيد ذلك جلجامش إلى الأرض ومعه يعاد الطوفان فتغرق نيويورك، وبعد أن جففت دموع أمي وأقنعتها أن رؤية باريس أجمل بكثير من حاجة معدتي إلى البروتين كي تبيع ذخيرة العمر من المخشلات، فكان أن خطفت قدماي إلى شارع الكفاح في العاصمة واشتريت عشرة أوراق من تلك التي طبع عليها وجه جورج واشنطن، وقد دونت فوق الهامة الصلعاء عبارة "توكلنا على الله".

أنتم تعرفون إن باريس حلم أي إنسان وهي أكثر مدن الأرض التي تزورني في أحلامي ثم تأتي بعدها المدينة التي قطعت فيها القابلة المأذونة حبلي السري وقالت لأمي المتألمة: "خذيه فعندما يكبر سوف يجمع في حقيبته القصائد والشظايا وحنين سفر إلى مدينة اسمها (باريس) . "أمي وبفطرة لم تنس هذا الاسم أبداً، وكانت تظنها مقاماً لولي حفظني من الإصابة بفقر الدم الذي أصبت به عندما كانت حاملاً بي. وعندما تساءل أبناء المحلة عن اتجاه المدينة وأين تقع لتزور وليها، كانوا يضحكون منها ويقولون لها: "يا أم.. عندما يكبر هو سيرشدك إليها". ذات يوم عندما أخبرتها أني بلغت الثامنة عشرة قالت: "الآن حان موعد نذر دعت لك به مولِّدتك، ستزور الولي الذي يسكن المدينة التي ذكرتها يوم ولادتك".

تصورت أنها تقصد مقام الخضر في السماوة، أو مقام أبي الحسنين في النجف، أو ربما أئمة الطف أو الجوادين أو سعيد بن جبير، أو الأمام الأعظم في اعظمية بغداد ، ولكنها قالت: "لقد زرتهم كلهم عليهم السلام، فقط بقي لنا أن نزور الولي الذي يسكن باريس.." ؟

ملأت فمي قهقهة عالية حتى دمعت عيناي.

أمي تعجبت ونهرتني كي لا يعاقبني الولي، ولكني في الوقت نفسه تعجبت من فراسة مولِّدتي وقدرتها على قراءة طالعي فلربما كانت عيون موناليزا مرسومة في عيني، أو ربما رأت برج إيفل شاهقاً على هامتي الصغيرة. ولكن من أين عرفت موناليزا أو إيفل؟

عموماً عانقت أمي وكانت بأعوامها الستين وجسدها الضعيف في أحضاني مثل قطعة قماش بالية. شعرت معها برأفة هائلة عليها، وهمست لها وقد بللت دموعي صوان أذنها: "سأحقق رغبتك وسأزور الولي الذي يسكن باريس. نعم سأزوره، ولكن لوحدي فهي بعيدة جداً، والسفر سيتعب امرأة مسنة مثلك يا أمي." ويبدو أن جوابي أقنعها. قالت: حسن، لا تنس أن تجلب لي "علك" من شباكه تريني إياه لأصدق أنك وفيت بنذري وهكذا ارتبطت باريس بحياتي وبدأت تضيء في ذاكرتي ليلاً بهيجاً ينسيني حتى رغبات امرأة أتمنى معانقتها تحت الفراش. واليوم أنا أكثركم سعادة وحقيبتي مليئة بدموع أمي، ومعها موافقة السفر التي حصلت عليها وزوج جوارب وملابس داخلية جاهدت أمي كثيراً بإزالة صفرة غريبة عنها، وكتاب لعلي الشوك عن علاقة التوراة بأساطيرنا الشرقية ومعتقداتنا الدينية، وقد أغرى غلافها الجميل مضيفة الطائرة، وكانت شقراء بلون أساور جدتي يوم أخرجتها من صندوقها المنجم لتتذكر عرسها. أعرتها الكتاب، ولكنها أعادته لأنه مكتوب باللغة العربية، وهذا لا يهمها مهما كان موضوعه. جليسي الذي فهم معنى الكتاب من عنوانه ترجم لها المحتوى فقالت: "أوه يوسف، كم أشتاق لأعانقه لليلة واحدة. امرأة العزيز لم تغره جيداً. أنا أعرف كيف أغريه "ثم غادرتنا إلى راكب آخر، طلب كأساً مثلجاً من الويسكي. أنا تمنيت لكنها عرفت جنسيتي ففضلت أن تقدم لي طبقاً من البيض المسلوق بحجة أننا محاصرون ونحتاج إلى بروتين أكثر من حاجتي إلى الويسكي، وعلى مضض حشرت صفار البيض بين أسناني، وأنا أتمتم غاضباً وأشرح لها بعصبية أن فوق سطح بيتنا دزينة من الدجاج البيَّاض. لكنها ردت: "ورغم هذا ينبغي أن تأكل البيض فقط. "معتقدة أنني ربما أحاول خطف الطائرة عندما يسكن المشروب جوفي. قلت: "لقد انتهت الكراهية منذ عشرة أعوام، وينبغي أن يكون السلام هاجسنا الوحيد".

قالت: "أتمنى ذلك ولكن الأمر يقول: لا تعط الخمر لراكب من بلدان الشرق الأوسط، خصوصاً العراق وفلسطين" تصفحت كتاب على الشوك. كان كل ما مدون فيه عن الذي حدث فوق أرض الرافدين وكنعان. شرحت لها بعض المعاني لما جاء فيه: "الله بدأ خطواته هنا، وآدم وقت النزول استظل بشجرة موجودة الآن في جنوب بلادي.. إبراهيم سيد ملتنا جميعاً ولد في مدينتي، في أور الكلدانيين يا سيدتي".

- أوه .. أور لا شيء في أور الآن سوى الغبار، وما كان جميلاً حملناه إلينا. ثلاثة آلاف عام لم ينتبه أي منكم إلى قيثارة أور ورايتها حتى أرسلتنا السماء إليها وكشفنا النقاب عن أجدادكم الذين رفضوا أن يظلوا معكم، وفضلوا متاحفنا، لتكون بيوتهم الجديدة ويزورهم اليوم ملايين البشر ليقتلوا وحشتهم ولينسوهم رطوبة قبورهم الملكية.

تعجبت وتساءلت، ربما كان والدها منقباً أو لص آثار، أو جدها واحداً من قناصل فرنسا الذين بدأوا في القرن التاسع عشر بشحن آثارنا إلى بلادهم التي اشتروها من الأعراب بأبخس الأثمان.

قرأت تساؤلي وقالت لمن يترجم: "قل له لست من أولئك الذين يفكر بهم. كنت دليلة سياحية في اللوفر.

أسعدتني إجابتها ولسوف أرمي عليها تعويذة القابلة المأذونة لتقبل بصحبتي، وأنا أزور اللوفر. وبفضلها سأنسل كسارق لأرى التراث الهائل لحضارتي الذي أسكنوه مرغماً على جدران

متاحفهم. قالت بعد أن عرفت ما في رأسي، كأنها عرافة: "حسن سأكون مرشدتك. إن في عينيك سحراً جائعاً ويبدو أنك سليل الأمير النحيف أور_ نمو. إن جسده يذكرني برغبة الأنثى لمضاجعة العشب، وكم تأملته في ليالي الوحدة، وتمنيت أن أنام معه" تذكرت، جدي كتب عن الملك السومري نصاً بهذا المعنى. وكانت من تمنت أن تتمتع بأحضان الجسد الشهي للملك الخجول هي زوجة رجل الآثار المشهور ليوناردو وولي.

وتساءلت مرة أخرى: لماذا الجرمانيات يشتهين امراء سومر برغبة عجيبة؟ وربطت كل هذا بعجز رجال الآثار.

قالت: "كاترين لم تخطيء إذن عندما منحت الملك السومري ليلة حمراء". ابتسم جليسي وقال بمكر:"امنحيه إذن ما منحته كاترين فهو سومري أيضاً".

طفحت خطوط حمر على خديها، وتحرك كتفاها العريضان بدلال لذيذ، ومن عيني شعَّ بريق قاس أوقف عدادات حجرة القيادة فاضيء مصباح الانذار، وأصاب الركاب الخوف والذعر، وصوب حرّاس الطائرات مسدساتهم صوبي، وكاد ربان الطائرة أن يتصل بأقرب برج مراقبة مبلغاً أن طائرته تتعرض لقرصنة جوية.

رفعت يدي ووقفت وقلت لشاهري السلاح:" ما الذي يحدث؟" قال أحدهم: "ما هذا الضوء الذي يشع من عينيك؟ هل هو سلاح ليزر؟" ضحكت وقلت: "إنه ليزر نسائي كعطر الشانيل الذي تغري به كاترين دينوف أنوف المخرجين فيتهافتون لتوقيع العقود معها".

ضحكت هي، الحراس ضحكوا، الركاب قهقهوا ببراءة. أطفئ المصباح الأحمر وقائد الطائرة تحدث بالمذياع معتذراً، وهي أشفقت على ذعري بعد أن تأكدت أن كاترين لا بد أن تتعرى مرة أخرى لأمير سومري، ولكن ليس في الغرفة الإلهية في قمة زقورة أور بل في شقة صغيرة بالجادة 127 –روج ليسيه-

ومثل قداس أطلق المذياع موسيقى منظمة بآلات نحاسية ليعلن بعد ذلك أننا الآن فوق البر الفرنسي، وأننا عندما نزيح ستارة النافذة سنرى مارسيليا تحتنا، وليغامر أحدنا ويمد يده ليلتقط زجاجة خمر من حاناتها الأسطورية وقد فعل الجميع وأنا معهم.

الكل عادت بيده زجاجة كونياك، وأنا لم تعد بيدي سوى تفاحة هائلة الحجم مع ورقة تقول" لأنك لم تذق التفاح منذ مائة عام.

"تذكرت أمي وكيف غامرت ذات مساء متحدياً توصياتها الصارمة بعدم الميل إلى الجنون وتلبية ما تراه في الصور كسؤالها عن الموز والتفاح وأجبان البقرة الضاحكة، واشتريت لها تفاحة حمراء بخمسمائة دينار، وخلسة قدتها إلى السطح، وأدخلتها معي إلى قن الدجاج، وقلت لها: "خذي، تذوقي ما لم يتذوقه اليوم سوى أبناء النبلاء ومتداولي أوراق العملات الصعبة ومصلحي السيارات والحلاقين".

بهرها اللون الأحمر فقضمت قطعة كبيرة وبلذة عجيبة لاكت قطعة التفاح ,ولأن أسنانها لم تتعود على الطعم الطيب للتفاح أصيبت بنوع من رد الفعل، ورمت بقايا التفاح إلى الديك الطيب

الذي كان يرمقنا بنظرات عدوانية، لعدم دعوتنا إياه للمشاركة في هذه الوليمة الفاخرة، وبخيلاء الفرسان رفع الديك عرفه ونفش ريشه وتقدم ليأكل التفاحة نقراً.

هذه قصتي مع التفاح، وربما عرف بها أهل مرسيليا، فأرادوا إعادة الملهاة فأرسلوا هذه التفاحة التي لم أقضمها كي لا يُغضب صوت أسناني حرس الطائرة، ويرمى بي من الطائرة إلى الأرض مثلما رُمي آدم يوم عصى أمر ربه، وأكل التفاحة. قلت: سأحتفظ بها للذكرى" وها هو برج إيفل يلوح في الأفق الضبابي لواحد من أيام أيلول، شيخا حديدياً هائلاً ينتصب وسط عمران غريب لتصاميم القرن الحادي والعشرين.

إذن ها هي باريس أيها الولد المهذب، وها هي المضيفة الجميلة. الدجاجة الملونة وبيضها المسلوق وصدرها الرخامي الفاخر وشفتاها المتلاصقتان كصفحتي كتاب جديد. إن عينيها تدعوانك لوعد قطعته على نفسها، بعد أن وصلت، واكتشفت أنك لست إرهابياً، وإنما أمير سومري دفعتك إليها رغبتها ليوسف فكنت أنت البديل، السومري الأسمر، بشعره المجعد ونظراته المشعَّة برغبات ألف منزل جائع، ولأنها لم تسمح لذاكرتها بالتساؤل كيف استطاع الوصول إلى باريس، حملت جسدها وحقيبتها بعد أن دسَّت عنوان شقتها في يدي. ابتسم جليسي وقال: "إن لك بختاً لم أره في غيرك من البشر. ألف سفرة ولم تنظر إلي، يا لسحر المدينة التي تسكن. إنها حقاً من المدن التي جبل الله طينها بيديه وصار أبناؤها محظوظين. قلت: "أيَّ حظ ونحن محرومون حتى من رؤية أجدادنا المحنَّطين في صناديق الزجاج في اللوفر؟" قالت: ستراهم، وسترى ما يجعلك سعيداً، ستراني أنا. "قال جليسي: "قلما أحسد شخصاً، أنا مليونير وأنت فقير، ورغم هذا أحسدك، فأنت الآن أغنى مني بكثير، ولو أرادت هذه الحسناء لكتبتُ لها شيكاً بمليون فرنك. يبدو أن في صدرك الأسمر خزانة بنك "انترا" أنتم منذ أول أيام الخلق صنع الله أجسادكم من ذهب رغم أن بطونكم لم تذق طراوة نستلة" المارس" عموماً سوف تتذوق بدلا عنها القيمر والنبيذ والسعتن الأحمر. تذكرني يا رفيقي وليذهب مالي إلى الجحيم. صدق من قال: "إن القلب أعمى".

هنا تداركت ما يحدث، فأخضعت الأمر إلى السحر الذي نملكه من جنوبيتنا وما منحاه من قرابين في كل تلك الحروب الخاسرة ، من الرقم المبعثرة في طرقات مقابرنا المقدسة: أور، اريدو، لكش، من تعاويذ آلهتنا ومن دموع جداتنا يوم دعين على طائرات الشبح لتتحول إلى بوم ينعق على شاشات التلفاز لكنها اصرَّت لتشعرنا انها حمامات وتزيح الجنرال عن عرشه المذهب ، ومن صمت أبي وهو ينظر إلى جسده العاجز، وقد لفته السنون الطوال وليرقد على فراشه القطني يتأوه من الألم، ومن أشياء كثيرة. ولد ذلك البريق الذي اخترق أسوار حصانتها، ولتمنحني كل شيء، ولكني أريد شيئاً واحداً. باريس حيث تقيم موناليزا وقصائد أول شاعر سومري ,وحيث تقيم أحلامي، والأفلام الخالدة لرومي شنايدر وكاترين دينوف وإيزابيل ادجاني وسيمون سونريه،وبعد هذا سأعود إلى أمي، وأقسم لها بتفسير الجلالين ومقام الخضر أنني لم أحتضن امرأة حتى مع تلك المرأة الهائلة التي أعجبتها سمرتي وغمزت لي بحاجبين من الشمع، وعندما سألت عنها قالوا: "إنها زوجة رئيس بلدية باريس". فهربت مذعوراً لتتلقفني يد مضيفتي وتقول: "هيا، هذا هو اللوفر أمامنا، وبخطوات مرتعشة دلفت إلى الممر المرمري من خلال واجهة الزجاج المحصَّنة لتطالعني الوجوه ورسوم حية وميتة، سعيدة وحزينة. نصب واقفة وأخرى جالسة لتستريح من نظرات الزائرين مع حشد كبير من سواح يابانيين. أخذت بيد مضيفتي وتفرجت. كان كل شيء جميلاً وساحراً. وآثار بلدي بدت نظيفة ومرتبة حتى أن الكؤوس النذرية لم تزل تحمل بعض قطرات نبيذ

ملوك سومر وبابل فيما ظلت طرية أجفان أميرات ومغنيات سومر وهن يرتدين الأثواب ذات الأكتاف العارية، وكان الدليل يشرح ويتحدث عن كل ما يملك من معلومات في ساعة واحدة. أما أنا فأستطيع الحديث سنة كاملة عن تلك الأشياء التي أيقظت في العالم الشعور بالحرية والحب والحرب أيضاً. كانت تنظر إلى عيني الغارقتين في المشاهد فتتلذذ بدهشتي وتشد على أصابعي فأصاب بنشوة رجولية عابرة أود معها أن أسحبها إلى زاوية مظلمة لأروي ظمأ الشوق لملاقاة أجدادي، لكني أتذكر زوجتي وأطفالي فيبرد الجزء الأسفل من جسدي وتتحول التي تعصر فيَّ أنوثتها إلى دمية. واصلت سيري مع شعور بالغضب من جانبها لأصل إلى الحدث المهم في سفرتي. إلى الجناح الخاص بالرسام ديلاكروا، وكنت قبله تأملت الموناليزا صديقة كل شاعر وعاشق في مدينتي، وتساءلت متعجباً كيف أعطى دافنشي ملامح خنزير أنثوي هذا الجمال البراق. وبدا لي أن ثمة خطوط لوجه رجل في عيون موناليزا. كانت الملامح للمرأة الفلورنسية حادة ومشحونة بأمور أخرى لكن العبقرية فعلت فعلها وحولت كل شيء فيها إلى مسحة من جمال غريب ونظرات تبدو في حقيقتها شاذة وتنوم كل من يراها مغناطيسياً، وتجعله يهيم شوقاً، ويبدو لي أن زوج "جيوكندا" لم يكن يحبها كما أحبها دافنشي الذي خلَّدها في اللوحة فقط, ولم يزعم أنها حضرت حفلاً لكونت أو عرضاً مسرحياً لمسرحية جوَّالة. المهم، دعونا من موناليزا ففي الجناح الخاص بديلاكروا اكتشفت متعة سفري فحال وقوفي أمام لوحته المسماة "ساردانابال" تلاشت كل رؤى التأمل التي كانت أيقظت حواسي المتعبة من الوقوف أمام طوابير الجمعية ,وتصليح دفاتر الإملاء لطلبة الصف الثاني الابتدائي. إذ ربطت ما رأيت بقصيدة بايرون عن اللوحة. وها هي في ذاكرتي قصيدة بايرون وعيني قاصة "موصلية" أبي، تعرفت إليها في "ملتقى قصة الحرب الأول". وكتبت عنها أن هذه الآشورية كانت سمراء ,وقد أغرتني ابتسامتها ونظراتها المشفوعة برغبة التعرف إلى هذا الجنوبي القادم، وكان لا يحمل في حقيبته سوى خجله ومنشفة قديمة وأوراق بيض. حيث تذاكرت معها ليلة كاملة، وكنا نتحدث عن أصولنا رغبة منا في صهر الماضي في آنية واحدة، وفي استفساراتي اكتشفت أن للقاصة "ن" جذوراً سومرية وأنها بقِّية من أسلاف أتى بهم الآشوريون من الجنوب فكنت سعيداً، وقرأت لها قصيدة بايرون وقلت: "إن ساردانابال كان عليه أن يعيد أجدادك مع محظيات قصره وعائلته عندما قرر ترحيلهم إلى بابل عبر نهر دجلة، ورغم هذا وجدتك".

قالت مضيفتي: "وجدت سومريتك، والآن وجدتني. الفرق أنها سمراء وأنا أشع بياضاً. إن رغبت ساطلي وجهي لأكون مثل تلك التي هام بها ملك آشور وتخلى عنها في محنتها".

قلت: "ولكن عينيك ستظلان زرقاوين، وأمي تخشى الأزرق لأنه يمت بالصلة إلى الحسد.

ضحكت وقالت: "ماذا أحسد فيك ملاييننك، أم بدلة المودرن التي ترتديها؟"

وكنت أرتدي بنطلوناً جاهدت كما عنترة لنيل عبله كي أحصل عليه من الجمعية، وعندما تسلمته وجدت ثقباً في مؤخرته، وحين طالبت باستبداله قالوا إنه خرج من المعمل هكذا، فرضيت به حبا بالهواء الذي يدخل وينعش ساقي النحيفتين اللتين تصلبتا الآن وهما تتذكران أيام الفقر والضياع على الفراش الوثير في شقة جرمانيتي التي قامت من لحظتها ودهنت كامل جسدها بزيت أسود يبعث بنفاذية قوية رائحة الصندل الذي خلق في رأسي صداعاً قوياً، ولأنادي على أمي لتشده بعصابتها، لكنها ليست موجودة الآن إنها هناك وهي تظن أنني الآن أمسك بقوة شباك الولي الذي دفن في باريس، ولو تدري أنه جسد امرأة من الشمع، لتخلت عن أمومتها وما نطقت باسمي حتى

مماتها.

وهكذا تغيب عن الوعي كمن ضربت الشرطة رأسه بهراوة.

امرأة وعطر، هو ما كنت تتمناه دائماً. كان جسدها بنعومته الطرية يعني لك عودة إلى الوراء بدولاب الزمن السحري لترى المشاهد الخلابة لأجدادنا وهم يقودون عبر سهولهم الخضر الأسرى من أعدائهم، وأمام لوحة ساردانابال كان المشهد العظيم يخيم على ذاكرة الجنوبي وقد خلط الشمال الآشوري سوائل بأخرى , ليشرب خمرة التحسر على ما أبقى التراب الوطني من جبروته, بعد أن أحرقت آور بنيران عيلام. قالت، وقد ودعت معها ليلة لا أعرف كيف أصفها. ليلة خلط فيها الزيت بالشهوة، بشهيق انثى من الكريستال، رد عليه زفيري فقيراً جنوبياً شربت منه حتى الثمالة، وكانت تقول بفرنسية لم يترجمها جليسي: "هل من مزيد"؟

قلت وقد أعياني اللهاث: "لقد منحتك كل ما لدي "قالت: "أنت لست سومريا إذن".

- "بالضبط لست منهم رغم أني سليلهم، والسبب أن الغرب فرض علينا شروطاً قاسية. أن نضع سيوفنا في المتاحف ونتجه إلى النوم مع نسائه" ولكنني خبأت سيفي، وها هو يدوس أحشائها بقسوة منتقم. وهكذا تعود إليها وكأنك لم تأكل لحم الدجاج في حياتك، وأنت الديك الأحمر الذي شد عرفه بأمنيات صياح الصباح لأنثى سكنت جوار داره من دون أن تعلم أم أولادك. وها هو الشعر الأصفر يبحر في شواطئ صدرك ويسير في غابات كثيفة ليكتشف أعشاباً نادرة وحشرات ملونة برغبة اللسع، وعندما تلسعني استيقظ من غفوتي لأرى لوحة ساردانابال أمامي ممدداً ومن حوله العذارى وفي عينيه تشع رغبة ملك غلب على أمره ,ورغم هذا صنع جبروته الجديد من أجساد نساء فاتنات. والعاريات حوله يمتن برغبتهن ورضا عينيه اللتين تشعان بلا أبالية مشابهة لتلك اللابالية التي ملكتها محظيتي بعدما شبعت من قمح جسدي المخلوط بنسب معلومة من الشعير والنخالة، ورغم هذا كان لذيذاً كما عبر عن هذا لسانها وأسنانها وانتعاشها الماجن أول ساعة فجر, عندما أعلنت أنها تريد أن توصل الليل بالنهار، ولنؤجل ذهابنا إلى اللوفر هذا اليوم.

كان فطوراً سريعاً أعدته هي، وقد فاضت بدلال المشتهيات، وهي تنقل جسدها العاري بين مطبخها الصغير ومخدع الحب، لتعود ثانية إلى رياضة الارتماء في الأحضان ,ولأتخيل مرة أخرى "مليكي الآشوري" وهو يرمق جواريه المدميات، فأستغرب إن كان الموقف حقيقياً. ولدي الان صورتان مختلفان عن مليكي الحزين. قصيدة بايرون ولوحة يوجين ديلاكروا التي حملت الرقم 9 في جناح الرسام والتي أنكر وجودها صديق لي كان قد زار باريس عام 1978 عندما تحدث لي عن جمال تلك اللوحة في ألبوم يمتلكه، ولي أن أقدر أن الملك الآشوري لم يكن بتلك السادية التي صورها ديلاكروا حتى قادتني ماريا لوبيز مضيفتي إلى اللوفر في صباح يوم باريسي دافيء لأقف وأتأمل وجه آخر لبني آشور فقفزت من بين شفاه النساء القتيلات بخناجر فرسان الملك , مقاطع من القصيدة الجميلة التي كتبها اللورد بايرون، وكلماتها تتحدث بلسان الملك الآشوري: كم أحببت.. كم أبدعت خيالاً مارست حياتي فيه, لم تفلت مني لحظة بغض بالعشق الخلاق ,أما الموت فليس غريباً، هو أهون ما نتخيل. إنه الموت الطبيعي ذاته عندما كانت هناك طائرات فوق مدينتنا، ولي أن أربط تلك الكلمات بموت واحد من أصدقائي وكان رساماً بارعاً، "هذا الصباح نشر الموت أجمل أرديته. "كنت منشغلاً بقصيدة بايرون ومتذكراً في الوقت نفسه الآشورية التي تعرفت عليها في قاعة العرش في قصر نينوى. كنت أحاول أن أجاورها سرير

أمي، ولكنها ذكرت في رسالتها الأخيرة أن أمراً إدارياً وعربات ملكية بخيول مطهمة نقلتها للتدريس في ناحية فايدة، وأنها ستكتب الي في كل يوم رسالة وستفكر بإرسالها مع رسل أمراء سومر الذين أتوا يباركون ساردانابال على ملكه الجديد. في خضم هذا الاستذكار اللذيذ والاستمتاع بملامح آشوريتي نقل ألي النبأ الفاجع بموت الرسام جمال كامل ناهض، صديق الدراسة والطفولة وهذا الخبر أوقع على رأسي صاعقة من الحزن ,فقد كلفته قبل أيام أن يتخيل ما صوره بايرون في قصيدته ليرسم مأساة الملك الآشوري ولأقارنه بما رسمه ديلاكروا , وقد وافق. التقيته في السوق فتحدث لي عن ضرورة أن تكون اللوحة رصاصة تطلق ألوانها على الطائرات التي أرادت أن تهدم قيصرية القماشين، حيث فكر برسم الضجيج الطفولي لواحد من مساءات قبل العيد لكن الطائرات قصفت المسقفات ورصاصة ما ثقبت صدره بعد أن تحدث إلي عن خطوط الملامح الأولى لوجه ساردانابال، فمن غيره سيلبَّي لي رغبتي بمقاربة القصيدة باللوحة؟

قالت ماريا لوبيز: "الموت في الشرق هو أن تكون دائماً بموازاة السحب، حيث يقدَّر للروح أن تسافر إلى ما كانت تحلم به ,ومن ثم تهبط على كف امرأة ما قطرة ماء باردة.

- تفسير جميل، إنك تفهمين الشرق جيداً.

- خاصة عندما يموت شعراؤه ورساموه بالرصاص.

ملكني الظن أن تكون سليلة من جلبهن ساردانابال من وراء أرمينيا حيث قالت الألواح: إن مع الأحجار الكريمة تجلب النساء ذات العيون الزرق ليصبحن حاملات كؤوس نذرية وعازفات قيثارة.

فهمت ظني، وقالت وقد دارت أحشائها بارتعاش مع ساقيَّ المتلهفتين إلى المزيد: "قد تكون جدتي هناك، وهذا لا يهم ولا يشعرني بهزيمة. أنا منذ قرأت ألف ليلة وليلة في الثانوية تمنيت أن أكون جارية لأمير شرقي، ولكنك أمير مفلس، هذا لا يهم. إن شهريار مفلس ونشطٌ خير من ألف مهراجا لا يحسن سوى الشخير والاستعانة بالعشاب لتتصلب ساقيه. إن العري يخيفهم، يجعلهم يرتعشون ويغطون رؤوسهم بوسائد الريش.

وسط أحشائها تفتحت نوافذ الرؤى وسكن الحزن خيال الملك الآشوري. الذي لوَّح بعلامة النصر، وهو يراني أمتطي مهرة غريبة، عالجت في جسدي آلام القفص الصدري، ومسحت الملوحة عن ركبتي، وأزاحت اليباب الذي امتد في فمي لتصير قبلاتها خبزاً ,وأن يشتري لي دمية كان قد تمناها لتكون عروسه.

في اليوم التالي، لم يكن نهوضنا مبكراً. امتد بنا سحر الجسد إلى الظهيرة، وذهبنا إلى المساء, وجاء الليل.

قلت: "كان ينبغي أن أذهب إلى اللوفر لأكمل مشواري مع أجدادي لأن الأسبوع سينقضي وسأعود إلى بلدي، وربما لن تتوفر لي فرصة العودة".

قالت: "في فرنسا أكثر من مليون أجنبي يقيمون بصورة غير شرعية. كن أنت واحد منهم، والأفضل لي أن يكون جسدك قربي".

- وعملك؟

- "إلى الآن ألغيت رحلتين، وسألغي ألفا أخرى. في جسدك أرى مدناً لم أرها في حياتي , فلماذا أسافر إذن؟" تأملت جسدي الأسمر كسمرة خبز بطاقة التموين. لم تكن تنبت على صدري شجرة برتقال. كان بدلاً منها حبيبات لحساسية مزمنة، وفي ساقي لم تكن هناك نيونات وناطحات سحاب. كان هناك شعر جاف وجلد مصفر من كثرة ما تناولت من الخضروات. تأملت وجهي، كان شاحباً، ولم يكن فيه أثر لأبراج بابل أو اهرامات الجيزة فأين المدن الجميلة من هذا الجسد؟

لكني عدت مرة أخرى لأقول هو سحر الشرق إذن. وثالثة ورابعة وخامسة، تستعر الأجساد ومع نيران الفراش الدافئ تتجمد ذاكرتي الجنوبية، وأنسى أن لي أماً تنتظرني لأعود إليها محملاً بقطعة قماش جميلة ,تتقافز بها أمام جاراتها في المحلة.

واليوم.. تجاوزت إقامتي في باريس ثلاثة أشهر، وأعترف أني خلالها زرت اللوفر عشر مرات ولنهارات كاملة، وأقمت مع ساردانابال صداقة متينة، وعرفت من خلالها أسراراً كثيرة لم تذكرها الكتب عن سقوط دولة آشور الهائلة، فالملك لم يكن سبباً بالسماح للأقوام الجبلية أن تغزو آشور. لقد كان الغزو من الداخل. أولئك الأمراء الطامعين بمجون السلطة والمال، وعندما بكى ساردانابال حزناً على إحراق نينوى، سقطت دموعه الزجاجية على أرضية المتحف المرمرية فكان صدى عزف جميل لقيثارة جاريتي السومرية تلك التي وجدتها صدفة في واحدة من أماسي الثقافة في الموصل. وأمامها انحنيت لأتأمل في خبايا الصدر الأسمر، زوايا أحلامي المليون وأنا أتمنى أن تموت الحرب ويعود الأمريكان إلى بيوتهم،وساردانابال أعطاه مدير المتحف منديلاً ليجفف دموعه، وليعود صامتاً وسط لوحة ديلاكروا.

اليوم بعد كل تلك الاعوام المئة أسحب خطواتي على ارصفة صدر مضيفة الطيران, واتخيل حزنا آخر لنينوى التي يحرقها المتطرفون وليس ساردانابال , فأعيش حزن ضياع نينوى في كل قدر جديد.

وبعد أن شبعت مضيفتي من جسدي، تذكرت أهلي، وذات صباح عندما كانت هي نائمة، حملت حقيبتي ذاتها التي قدمت بها من بلدي ,وبما تبقى من فرنكات قليلة معي اشتريت لأمي قطعة قماش صوفية ,وإلى أقرب مكتب للهجرة سلمت نفسي، مدعياً أنني فقدت ذاكرتي، ولا أدري في أي يوم جئت إلى باريس، وعندما قرأوا جواز سفري اكتشفوا كذبتي. أحسست بأني مرمي في عنبر الشحن في إحدى الطائرات الذاهبة إلى الشرق الأوسط حيث سأسلَّم إلى سلطات بلادي، ولأنتظر من كفلني، ولأجد أمي وهي تنظر إلي بغيظ ودلال، وقد جفت عيناها من النواح، لكنها تكاد تطير من الفرح لأنها وحدها التي وفيت لها بالوعد، وعدت لها بهدية.

آنو فوق الشجرة

انزويت مع متاعي في الركن الخلفي لقاعدة الزقورة، وقد أعدت رأسي إلى ما كنت أتمناه، أن أحظى بخلوة مع الماضي الذي جلبني إليه سحر ما من مستقبل بعيد جداً، وكنت أرى مدينة مزدحمة وبوابات تفتح وتغلق مودِّعة قوافلاً ومستقبلة أخرى، وكنت في الوقت ذاته أمتِّع ناظري بجندي ثمل يجاهر أمام المعبد بأنه يستطيع أن يسرق قلادة الكاهن دون أن يعلم، وكان الكاهن ينظر إليه من شرفة المعبد مرتجفاً. تمتعت أيضاً بموكب الأميرة , وفصيل من الجند , وبكاتب الملك وهو يدون احتياجات المدينة من القمح، ويبدو أن البيضتين اللتين وضعتهما أمي في كيس المتاع ما عادتا تصلحان للأكل فاحتفظت بهما ليد آثاري كي يقدر من قشورهما عمر سلالة أور الثالثة. أور في هذا النهار لم تكن بالمدينة الهادئة فالقوافل القادمة تعود فارغة والذاهبة أيضاً , وأشد ما أفزعني صوت من داخل الحجرة الإلهية من قمة الزقورة وهو يخاطب جمعاً ما، ربما الملك ووزراءه.

"المدرك هو الذي نقف عند حدوده ونراه جيداً. والمنفى هو ما أراه الآن في متناول اليد , ونذهب إليه قسراً لتشعل أمام أجسادنا المصلوبة مشاعل الموت، والأمير هو الذي يدرك سر المنفى , ويطالب بخشبة يدق عليها أشواقه قبل أن يعلن قانونه الخاص , وينادي بالابتعاد عن جهة الريح ليسلك طريق الراحة ويقيم مجده الآلي من أسلافه ممن ركب السفينة وابتعد عن استغاثة الخاطئين".

تذكرت أمراء المنفى أولئك الذين تحدثت عنهم جدتي التي ارتدت برقعاً وعباءة صوفية، وامسكت عصا مرتجفة, وبأمر صارم قالت: "اجلسوا واستمعوا إلى حديثي وأنتم صامتون" ويبدو أنني جئت في الوقت الذي كانت أور تعاني من ضعف أولئك الأمراء. وإن السلالات بدأت تنفي بعضها البعض , والتجار يضاربون بالقمح وإلغاء الصفقات المبرمة التي يجاهد آبي- سين ليعقدها من أجل سد رمق شعبه. لقد عانت أور الكثير يوم رفض المطر أن يهبط بمظلات الحرير لأن نثار إلهها صفع المطر على مائدة شراب , فكان على آبي- سين أن يدفع الثمن , وأن يتحمل حزن المنفى , وهو يرى مدينته تطهو الحصاة وتوهم مدنها المنتشرة على ضفاف الفرات أن الذي يغلي في القدر هو لحم الثور السماوي الذي سيشبع بطن كل جائع.

تكرر المشهد في لحظة خاطفة عندما أصر قائد الجند أن يلتقط صورة قرب جثة الملك المنتحر الذي رفض قيود العدو وحياة الأسر, وفضَّل أن يموت بسيفه لا بسيف عدوه، وعندما اشتعلت المصابيح المرتجفة لمرافقي القائد العيلامي بدأ صباح آخر لمدينة تموت. كانت الشمس تشرق على أور وتبعث من أثير حزين أطيافاً زرقاء باهتة, ودخاناً رمادياً يتلوى من حزن أن تمشي أميرات سومر على جمر النيران التي تحرق بيوت المدينة.

- مقطع من لوح سومري-

"غذاء الآلهة المفضل الكرفس والنبيذ ويترك القمح للبشر. آنو كان يكره القمح لأنه من أزل بعيد وخزت سنبلة صفراء مؤخرة شيخ الآلهة. ومنذ ذلك اليوم لم يخلع آنو ملابسه الداخلية كي لا يرى ما أحدثته السنبلة، ووقت الحب يطفئ آنو العالم كله, ويمارس ما يريد حتى لو كان ذلك في ظهيرة تموزية قائضة..".

القمح.. القمح قال المواطن البسيط منادياً كاهن الزقورة الذي دفعته أقداره إلى المرور بسوق المدينة, لم يرد على تساؤل المواطن بل رمقه بنظرة استهزاء، وقال: "تلك مسؤولية الملك اذهبوا إليه".

وهل يذهب إنسان عادي إلى إله؟

إنه مؤلَّه وليس إله. تلك صورة اصطبغنا بها سموه كي تخضعوا له. الآن وقد عجز عن توفير القمح عليكم أن تجردوا من جسده ثوب الآلهة، اجعلوه عارياً وارموه في الفرن كي ينضج، ثم اقتلوا به بطون مجاعتكم. هذا نفاق منك أيها الكاهن. نحن لا نبيع ملوكنا في أزماتهم.

إذن أشر جوعك بالدعوة لأبدية الملك، وليمت الشعب.

قال مدرس الوطنية: الشعوب لا تموت.

تذكرت وقد تعودت خيالاتي على سجلات سوق أور- أنا من أدركت مع الملك أن عاطفة المدن تولد مع رغيف الخبز وقبلة امرأة.

ابتسم الملك، دمعت عيناه، وقال: انظر بدأ الكهنة يبيعون الملك.

قلت للملك: في صباي كنت أقدس مدرس التربية الوطنية وأفضله على الذي يدق في مسامعنا أوزان الخليل.

- الوطنية هنا أن تكون السلالات بحجم ثوب الملك. أشعر بأن الآلهة تعطي السلطة للتسلط والتسلي بحزن الولاية التي يمكنها أن تمنحنا سلطة أن نكون جبابرة، هذا جبروت عاجز اليوم في أن يوفر كيسا من الطحين انظر، قبل أيام أوعزت لوزيري أن يطعم أطفال ذلك الصف الدراسي المغلق بجانب الزقورة، وبالكاد وفرنا كيساً.

وفي الطريق غيَّر الوزير رأيه, وأمر الجنود أن يبيعوه في السوق السوداء, الشعب عجز عن شرائه فاشتراه أعداؤنا، لم يطعموا به جنودهم بل رموه في النهر. إذن السلالات تجهل الوطنية عندما يكون الملك مشتتاً مع خواطره الحالمة بإمساك الجهات الأربع.

- لوح سومري-

"دموع الملك من ذهب. الآلهة أمرت أن يحمل القمح لون الذهب، هذا يعني أن دموع الملك من قمح. انتهى"

اقتربت الظهيرة من الدكة التي اشترطت عليها أن تحمل تساؤلات الذي رغبت به، ولا زال ثمة زحام في سوق المدينة. الكاهن غادر المكان مثخناً بالجراح بعد أن رماه أطفال العامة بالحجارة.

الملك ابتهج لمنظر كهذا. أنا حركت حاجبي إلى التي رغبت أن تشاركني بهجة السفرة المدرسية فجاءت تحمل سحر عينيها على أكتافٍ غضَّة كمن يحملن سلة رطب لمسافر جائع.

قالت: إلى متى تظل مع البعيد، ترصد بشتات النجوم لتجمعها في مستحيلك الفقير. أمس طرق أحدهم باب البيت. أبوه آمر لواء مشاةٌ وأمه مخمنة في دائرة الضريبة, وهو يتاجر بالعطور والفساتين.

ضحكت.

الملك خلع خاتمه اللازوردي وقال: خذه فهو ثمين جداً

قلت: لا يكفي يا مولاي.

قال: ما الذي يكفيك؟

قلت: باخرة قمح أدفع فيها جوع مدينة .

- وهذه التي تحرك وركيها مثل رقصة فرس مخمورة؟

- في عصر كهذا لا يجد الرجال في النساء بهجة أخرى وأنهن نوع من الحل.

- في أساطيرنا أنواع الحلول تصنعها الآلهة.

- والآلهة في عصري ارتدت موضة التغيير, وصارت تركب السيارات الفارهة وتتاجر بقمح أحلام الفقراء. إنهم لا يعرفون الالتفات إلى الوراء. إن الأمام الذي يخطون إليه هو ما يجعلنا نقف ونشدهم ولكن بقلوبنا.

اليوم رأيت العامة في أور يشتمون الآلهة بألسنتهم ربما لأنهم يحبونك أيها الملك الضليل.

- نعم أنا أحب شعبي.

قالت: أنت من يحبك غيري، ورغم هذا تريد أن تفرط بهذا الحب.

في الأيوان الملكي حيث الأبهة الزائفة ومشاعل النيون الملون. أطياف غامضة ترقص في فضاءات القاعة. تجار القوافل المارقون ينتظمون في صف الدراهم, والقواد ينظرون إلى مليكهم, فيما رسم الارتياب والتشفي خطوط المحنة القادمة على وجوه الكهنة. الكل يريد من الملك والملك يريد من الآلهة, ولكي يتوحد مع أُلوهيته أمر بإطفاء النيونات وفي الغرفة المجاورة كانت أميرته المدللة رام- سي تطلق من مذياعها الياباني موسيقى هادئة وأمامها يتطاير بخار الرغيف الذي قدم إليها مع لحم الضأن وعلبة الجبن المملح برغباتها أن يسمح لها والدها بالسفر إلى آشور للاصطياف مع أميرات الشمال.

كان إطفاء النور إيذاناً بانسحاب الجميع. وحده الكاهن الأكبر يبقى وقائد الجيش، الكاهن لأنه الوسيط بين الآلهة والملك، وقائد الجيش خوفاً من خناجر الظلام. كان جميلاً أن تستدعى الآلهة على صوت الموسيقى. أحس الكاهن برغبة قوية في الرقص. والحق أنه بدأ يهز كتفيه, دخل الملك في غيبوبة التوحد فيما بقى قائد الجيش صامداً كالحجر.

الملوك في لحظات غير محسوبة تحولهم الهموم إلى أطفال وفي وحدة آبي - سين أدارت فضاءات الأمكنة سحابات ممطرة وكانت قطراتها أياماً قديمة، حيث لم تكن الآلهة بعد بهذا الطفل المتورد الخدين والذي كان أبوه يعدَّه ليكون أميراً يتجاوز بحكمته وسيفه الحدود التي رسمها أمامي أور. تمنى لو لم يكن ملكاً وأن يعود ذلك الطفل الأسمر الذي يحتضن لوح الطين, ويردد عبارات المعلم السومري. لوح جف قبل ساعات وانطبعت على ذاكرته قصائد الفقراء والجند والمتشردين، لكن تلك رغبة آنو أن يتحمل وزر أزمة القمح وأن يسعى كي يبقي أبواب أور محلقة في وجه المتصيدين في الماء الآسن برغبات امراء السلالات الذين أرسلوا أمس برقيات تأييد زائفة وبعضهم أرسل مع لوح البرقية سلة تمر ما إن تذوق الملك إحدى حباتها حتى وجدها مليئة بالدود، هذا قدر الأمراء. كان ذلك صوت الحكيمة والدته, هي رحلت إلى مقام الآلهة منذ صباه ولكن صوتها ظل يسكن بدنه، وكأن نجدة من بلد بعيد جاءت لتعين أور، وقال وقد كشف الفرح عن شفتين بلون الفجر.

- أماه. لا يصلح لأم أن تترك ولدها في محنة. يبدو أن الآلهة لم تلتفت إلي، وأنا الذي رهنت عقد الملكة عند الكاهن الأكبر أوفر لها أفضل ثيران مملكتي نذراً، وهي لم تأكله بل أكلته الثعالب، حتى عشتار التي كنت أعتبرها أمُّاً روحية لم تهبط لتتناول كبد الثور. وذلك ما كانت تحبه, أكل كبد غراب متطفل, فعرفت أن الجميع قد أدار وجهه عني، فهاتي وجهك إليّ فقد يعوض قلب الأم عن قلوب الآلهة كلها.

- كنت أتمنى يا والدي أن لا يكون قلباً نداً لقلوب الآلهة، فالحب يسكنها قبل أن يسكن البشر، ولكنها تجعل هذا الحب مشاعاً للجميع إنها تختار من تريده وقد اختارتني لأجلك أنت. ولكن الآلهة ليست لي وحدي. إنها أدارت وجهها عني لغيري وتلك مشيئتها أمس طلبت الأذن من ايريش كاكال آلهة العالم السفلي لأقابل آنو في عليائه، وقد سمح لي لليلة واحدة فوجدت آنو متربعاً فوق شجرة الحكمة بحديقة النيروز, وعندما رآني أوما لي كما لو كان ينتظرني أجلسني بجانبه وقال: أمهات الملوك القدر الحقيقي لكل مملكة وقد عرفت قدر مملكتك فلماذا أنت هنا؟

- جئت لأعرف السبب، أيها العظيم آنو.

- الآلهة لا تعطي أسباباً لأفعالها وذلك يضعفها، الآلهة الضعيفة لا تسكن حدائق الفيروز بل تسكن البيوت الخربة. وأولئك الآلهة معاقبون أصلاً, لأنهم لم يسيطروا على جبروتهم، فأدلوا ببعض أسرار المكنون الذي ينبغي ألا يرى إلا من خلال عيون الآلهة آبي- سين ولدك، خدع ننار ذات ليلة، أفرغ في جوفه ألف برميل من النبيذ, فأراه آلهة أور قدر المنفى لملوكيته. كان هذا انتصاراً عظيماً بالنسبة لـه كإنسان. أراد أن يتحرك وفق الرؤيا التي رسمها لـه ننار، ولكن أوقفت كل شيء وأرسلت أمري بأن يحمل الجفاف على أرض أور وأن تحرق كل حقول القمح. لقد أعطيتك السبب لأن الفعل الذي ارتهن بأور تم تنفيذه وآبي- سين له الخيارات: المنفى، الانتحار، الأسر.

قالت الملكة للملك الذي خبأ رأسه في أحضان أمه كما الأطفال في الليلة الباردة: "هذا قدرك مع الآلهة. سببه أنت. أبوك ترك لك اللوح السابع من الوصايا، احترم رغبة القمح ولا تحترم رغبة الآلهة، لأن القمح استطاع في يوم ما أن يرسم الخجل على وجه آنو".

تذكرت وخزة المؤخرة في قفا شيخ الآلهة، ضحكت، ورفع آبي- سين رأسه المبلل بدموع الكريستال والتفت إلي:

- ننار هو الذي تحدث، ولم أطلب منه ذلك وكان هو الذي يرغب بمزيد من النبيذ في تلك الليلة لو كان في مخزن القصر نهر من النبيذ لشربناه.

- أعتقد أن حزناً ما دفعه ليفعل ذلك.

- نعم يعتقد أنه من أنضج السنبلة ووضعها في طريقه.

تذكرت أن الآلهة تعاقب المتمردين بعذاب أزلي. لكن ننار لم يعاقب بقسوة خوفاً من أن يحجب الليل عن العالم فلم تعد الآلهة تستمع برؤيا مجامعة البشر وسماع الأغاني الحزينة.

أوقفت دهشتها وسط عيوني. قالت: الحب هو أن ترغب دائماً لماذا الرجوع إلى الوراء. أنظر لقد لبست لأجلك أجمل فساتيني, ودهنت عنقي بأطيب العطور, وأسكنت قلقي في منفى أحلامي لأظل لك وحدك.

- لوح سومري-

"الأديب يعشق الألواح قبل المرأة والشمس, رغبتها أن تصنع الفضيحة قبل رغبتها بصنع الضوء، والآلهة أشارت بتمجيد القمح قبل الإنسان. ما بعد ذلك يفترض أن يكون مدركاً لحقيقة الألم الذي تعانيه. اعترفي أيتها الآلهة المحبوبة إننا عبيد للقمح والمملكة الممتدة الأطراف كرداء الكاهن ستكسب حظها من عاثرات الدهر. أور عامرة.... أور خربة.. هذا هو الدهر فتضرع ما شئت فالآلهة لا تطعم الحليب. لأنها تخشى غضب القمح، يا لجبروت القمح".

قالت وقد استعادت دهشتها من عيوني: أنت تذهب بعيداً. أنا لا أفهم هذه الطلاسم, أعرف أن الحياة هي أن تكون مستلقياً قربي على وسادة الريش, وترسم بشفتيك القبلات الزرق على شفتي, هذا أقصى ما تتمناه عاشقة.

أنت تلعن الأزمنة. أنا أفهم من هذا الأمر أن لون وجهك يتبدل، وأظن أن جنياً ما يسكن رأسك, وأشير عليك أن تذهب كي نقضي ليلة قرب مرقد سيد رحمه في ريف العكيكة. هو وحده من يطرد الجني من رأسك، جنيك التاريخي الذي يتلو عليك ما يظن أنه كلام ألواح. إن استمر فيك هذا الهاجس فلا فائدة منك. في أيامك الأولى كنت تهمس لي: الحب هو بداية اثنين لا ثالث لهما. أنت في كل يوم تأتي بثالث جديد. آنو، عشتار، بوآبي، أور نمو، كوديا، آلهة وملوك من زمن معين، حتى أنك لم تجعل هذا الثالث في إحدى المرات ليكون نابليون مثلاً، الفيس بريسلي، عبد الحليم حافظ، رجل من رجالات ثورة العشرين، لا تملك غير سومر, وبما أنك أُنبئت بأنك وريث هذه الأطلال التي صدئت من صوت الطائرات ورغبات رجال الآثار. أن من كانوا هنا هم ليسوا هنا الآن. الأطياف وحدها باقية، وهم يعيشون الآن في صناديق زجاجية معطرة في متاحف لندن

وباريس وواشنطن.

أسدلت الستار على حزني ورميت الضوء بعيداً, حدها بقيت تفيض بعطر غريب. كنت أصنع من همِّي كيساً من القمح أدفعه بمزلاج الزمن إلى الوراء لتصل الملك الحائر.

كانت الظهيرة تسقط على أفكارنا رغبات عشق متناثرة، ولكي أرضيها بدأت أهمس لها بمحبة القرن العشرين. حدثتها عن مدن تنتفض وصالات عروض الأزياء. شرحت لها العولمة وماذا تعني ثورة الحجارة في حيفا, ولماذا تطارد أمريكا أسامة بن لادن، وعن سر الضوء الذي ملأ عيني كاترين دينوف وهي تترأس لجنة تحكيم مهرجان كان السينمائي. كانت تستمتع بحكايات الحاضر. وهي امرأة تريد ما حولها وكفى, ويبدو أن الله أبعدها من السفر عن ذاكرة المرأة وبدأت تفتح أسارير مشاريع الغد. غرفة النوم, الزجاجيات التي ستشتريها من سوق الكاظم, الفساتين وخاتم الخطوبة قيمة المهر, وعندما ابتسمت قالت: لا عليك لن تدفع سوى القليل أمي ستوفر كل شيء.

تتملكني النشوة لأصيح بأعلى صوتي: إني أحبك، لأنك وحدك من يقدر أن يرحم إفلاسي, وأصيبه في الصميم الآن وقد واجهك الملك بإفلاسه. لا تقدر أن تعي حالة جدية غير تلك التي تجلس معها مكتئباً أمام الملك الضليل. كان الملك في بدء الخليقة يمثل امتداداً لهيبة خفية مصدرها العلياء البعيدة حتى عن ذاكرة أكبر كهنة سومر, وحتى الأدباء لم يقدروا أن يجدوا مصدر هذه الهيبة التي توقظ في أقلامهم أحلام التمجيد والحفر على المسلات بأظفار من كبرياء, يتسلط الضوء على جبروت هذا النحيل ذي الكتفين العاريين. كان ينبغي أن نتصور الملوك أجساداً ممتلئة بضخامة الرعب والخوف والقدرات التي لا ترحم. كان ينبغي أن يكون حجم الملك بحجم الهيكل، لكن ملوك سومر- كما نراهم - مرسومين على المسلات وجدران المعابد وفي التماثيل المنفردة ضعاف البنية, وحتى أن أور نمو في تماثيله وهو يحمل آنية البناء يبدو بحجم طفل.

آبي- سين المفلس لم يكن لـه مزاج ليجيب، وهو نحيف أيضاً، واختصر كل هذا ليقول أنه وجد نفسه ملكاً بعد ولاية عهد لأن أباه كان ملكاً. الآلهة تمنح الملوك خلود التوارث, لكن الأقوام البربرية تتعدى رغبات الآلهة في بعض الأحيان وتنتصر عليها ولو لمدة من الزمن. أما لماذا نحن بهذه الحجوم فأعتقد أن الملك بسلطته الروحية لا بسلطته الجسمانية وسومر أرض للعقلاء وليست أرضاً للجبابرة الضخام.

قلت: الملوك يفسرون الحالة من خلال تيجانهم, الآلهة تدرك مغزى سلطتها فتحيل ذلك إلى ظلال تصنعها أنتم يا مولاي.

- نحن, لماذا نحن في كل نهاية مطاف نلام؟! وكأننا اغتصبنا حقاً منحته الآلهة لنا وها هو امتحان القمح هاجس جديد يؤرِّق ليل ملك كان يداعب قيثارة أناشيد عذارى المعبد. أن الحكمة في كل هذا اكتشاف مستوى الولاء للذين هم قوتنا.

- ربما واحد هو الذي يريد أن يكتشف.

- نعم. آنو وحده من يصنع دمه في امتحانات قاسية. هو الآن فوق الشجرة وأنا تحتها. الحكمة بيده. القوة بيده. ويدي ليس فيها سوى هذا الكأس النذري الذي يحتوي على نبيذ النسيان.

- ولماذا تريد أن تنسى؟

- لأن المأساة كبيرة يا صاحبي.

الآن وقد أحزنني موقف الملك قررت بعد فصل من حوار دافئ, من التي تجلس الآن على الرمل وتداعب ركبتيها بأصابع من الورد، وتفضِّل أن تفتح معي أخاديد النهار الدافئ لنطير سوية كعصفورين في فضاء من بهجة غامضة, يستطيع فيها الإنسان أن يكتشف في الحب الغابات القصوى فتعرف ما عليك أن تدركه منذ طفولتك. إن الجنوبي الذي تتوارد في ذاكرته الأماني والجوع, عليه أن يقود خطى الغد إلى عنفوان هائل مع امرأة بحجم معبد الزقورة. امرأة ينتفض صدرها على الرمل مثل حوت طرده البحر فانشق من بطنه نبي جائع, يلتهم المؤمنين والمشركين وينادي بتوحيد ذات الآلهة. آنو كان يبغي في إضعاف الآلهة وحدة روحه، روحه التي لا يراها حتى هو، ذلك النور المنبعث من شجرة الحلم ليوقظ في الملك الثمل أحلام أور النائمة على وسادة انتظار بواخر القمح. وهذه التي تمدد ساقين من عاج وفضة ترى في قراري الأخير في الصعود إلى الشجرة ومحاورة آنو جنوناً وفلسفة فارغة، فلقد ألغى العشاق اليوم من قائمتهم شرب البيبسي كولا لأن الدولة منعت بيع السكر التجاري لارتفاع ثمنه. ولكي تتسلى بجنوني قالت: خذ معك إلى آنو وأنت تتسلق شجرته علبة بيبسي كولا وإن كانت تكلفك نصف راتبك. أولاً. إني أتخلى لإلهك المفضل عن علبتي المثلجة هذه. خذها إليه واذهب, يبدو أن سومر هي العشيقة المفضلة. سومر التي لم يدركها التاريخ بعد لأنها بعيدة جداً وأنت تريد أن تصل إليها بالوهم. قل لآنو إن شاهدته: أن بياض ساقي ناصع أكثر ألف مرة من ساقي عشتار، ودعه ينزل لأريه فلربما يتراجع عن قراره ويسمح لبواخر القمح بالوصول إلى أور.

البواخر قد لا تصل لأن قرار آنو لا تراجع عنه. ألبسني الملك حزنه وتملكني شعور برغبة الانفلات عن العالمين الماضي والحاضر, فالرؤى الآن لا تقدر أبداً أن تمسك لحظة. إنها طيش نتلذذ به ونقيم على موائد جلسات حماسنا، نحن من رفضنا الوقوف على عدسات المراقب، لمراقبة شروح الروح، وفضلنا أن نتلهى بصنع خناجر من عجين مفخور حتى نثبت لنساء- لم نستطع أن نكسبهن برسائل الحب- أننا طبقة الفرسان الذين يدركون معنى الشيء, حتى لو كانت هناك حرب يعلنها ملك تعس.

إن آبي –سين الملك المحاصر، يتلوى من العشق قبل الجوع، ويمكن لي لو أزحت ستار عينيك عن نافذة عيوني، أن أحضره الآن كمن يحضر على نار مشعَّة شايه المفضل.أن تسامر ملكا تلك لحظة جميلة تشبه تأمل بجعة تخلع ثيابها الملكية من بحيرة حياتك حيث أعطاك الراتب ديمومة التمني وملأتك شهقات واجهات المخازن، وعدلت استنكارا عن لبس ربطة العنق لأنها تجعلك تدفع ضريبة التباهي وتتحمل ثمن شراب أصدقائك في الحانة.

لقد دخل الملك في غيبوبة حزن أبدية. ألف امرأة لن تداوي جرح ملك منكسر, لقد أطفأت عنه الآلهة شموع ليله وغاب في صمت وحدته. وحدهم كتَّاب القصر يدونون تلك الارتباكات المدهشة لمليكهم الرقيق.

- لوح سومري-

"وجوه الملوك مرايا الشعب. عاطفة الملك أقل مساحة من حديقة القصر، غضبه صحراء

بلا أسود, لا تنطفئ قناديل غرفة الملك إلا عندما يحزن الكهنة. الكتاب الذي يقرأه الملك مؤلف من قبل الآلهة. ملك من دون قمح, طائر دون أجنحة. دموع الملوك ذخيرة القادة, وابتسامة ذخيرة الجنود. كل سومري ملك, ولكنه يحتاج إلى ملك ليقوده".

قالت: أما كفاك؟

قلت: إنه يبكي اليوم .

- إلى اليوم نادراً ما يشاهد ملك يبكي .

- ولكنه يفقد مدينته.

- أور..؟

- نعم.

كانت الخيول الغريبة تضرب على الأرض اليباب بطبول مشتعلة. لم تكن متراصة بصفوف منضبطة، فيما كان القائد العام للجيش المعادي يراقب بمنظار ليزري ما يحدث من معركة غير متكافئة، كانت صور أور في الجفن الأيسر لكل سومري, فيما رُسِمت حبة قمح في الجفن الأيمنْ ثلاثة ليال وانتهى كل شيء, وخاتمة المشهد كانت مائدة للآلهة تشرب النبيذ وهي تنتحب، فيما شد الحزن عيون آنو المنتحب، وهو جالس فوق شجرة الحكمة في علياء العالم, ووسط ضجيج المكان المقدس أطلقت مذياعات ضخمة المارشات العسكرية, وبثت المحطات الفضائية رسائل مستعجلة من أور التي ما زالت تدافع عن نفسها, وخاتمة المشهد أن اكتملت ثمالة الآلهة وغفا آنو على شجرة مبللة بدموع ألم مقدس. وما أن أنهى المراسلون تقاريرهم حتى اعتلى مائدة الآلهة الغافية ملك بلباس سومري ليقف شامخاً مثل زقورة، وغرز الخنجر في صدره منتحرا.

المكتبة السومرية

يقولون: الكتب لسان حال الروح المتألمة, والذي يدون ما يراه يذكر متعة الماضي، وغيره سيغرق في قدح النسيان. وقديماً كان اللوح لسان حال البدائية التي ربطت مصيرها بمصير آلهة اخترعتها المخيلة. ذلك قبل أن يشوى الطين وتمشي الأقدام المدببة وترى الحروف النوم، ويبدو أن من اخترع الحرف قد شده صوت طبيعي، ولكي لا ينساه رمز إليه بإشارة معلومة لديه، وأعتقد أن تغريد الطيور كان هاجس التدوين الأول، ولكن الست فاطمة أمينة مكتبة المتحف تعتقد أن الرعد وصوت المطر والاستغاثة التي أطلقها هابيل من وجع الحجر الذي رماه به قابيل، دفع الإنسان لأن يترك همس شفتيه ويمارس حركة الأصابع، ومنذ ذلك الوقت ولدت الكتب. يرسم اللوح صورة اليوم البدائي, مبتدئاً بالحدث الذي يرج في الذاكرة البشرية الأحاسيس, فيرتعش الجسد ويتفوق على خوفه فتسقط خطوط الضوء على الطين وتظهر مبتكراتنا، ويبدو أن المرأة بعريها وأنوثتها الطاغية شغلت الصفحة في أول لوح مدون، فكان عليه أن يسجد خشوعاً لتلك الهالة المضيئة من الكبرياء والدلال والعاطفة، وعندما أراد أن يرسم قربها فراشاً لتستريح رفضت, وظلت واقفة بصمت أشعل فيه رغبة أن تكون ممددة, لكن عنادها دفعه لأن يجعلها آلهة. كانت رفوف الألواح منضودة بعناية وتناسق، تحوي عالماً في غاية الأهمية بالنسبة لعصور ما قبل الميلاد حيث ابتدأ التدوين، وأعتقد وبعد مداخلة فاض فيها رذاذ عطر الشانيل من عنق الست فاطمة- وكان الحوار يجري في غرفتها المبردة في يوم تموزي قائظ- إن الفضل في معرفتنا حياة أجدادنا يعود إلى طريقة اكتشافهم الواح الطين, وأنهم حسناً فعلوا لعدم استعمالهم ورق البردي ليدونوا عليه رؤاهم ومفاصل حياتهم الاجتماعية والأدبية لكانت هذه الكتب عرضة للحرق والتدمير في كل حرب وما أكثر حروب السلالات.

قالت الست فاطمة: لأن الطين غرس الأرض فقد حافظت عليه حتى عندما اندثرت مدن سومر، وكانت الألواح تظهر لعمال التنقيب كما لو أنها فخرت قبل لحظات, فكانت توحي بجلال عمل قدير لأقلام مجهولة، أقلام لا ندري كيف فكرت وأشعلت في رؤوسها رغبة هائلة للاكتشاف, متجاوزة ببساطة الحياة الإنسانية لتشغل أفكاره بما يجري حولها، المطر، تفتح الزهرة، الرعد، حركة الموج، جفاء المرأة، السيطرة على جموح الجواد، عناد السنبلة في وجه العاصفة، الرغبة في إصدار أصوات عذبة لجلب انتباه أنثى ما. ظواهر عدة كونت في صورتها رؤى لخليقة جديدة أرغمت آدم لأن يرتدي ثوباً من القطن, وكذلك فعلت حواء، وبعدئذ ابتدأت عندهم لغة الفراش فانتشر البشر على البرية مثل جراد في موسم قحط.

ترسم الألواح في انتظامها الأفقي هيبة مجد قديم, ومع عطر الشانيل يظهر تأثير هذا المجد على الزائرين, حيث المدى الرحب للمفردة التي تضيء بزرقة حجر مفقود من مقتنيات واحدة من أميرات سومر، وكان اللوح قد تحدث عن حجر مضيء كعشب ندي في واحد من

صباحات أور.

قالت فاطمة: في هذا الجناح تجد الجنوب ونفسك، ويبدو أن الكاتب السومري تعمد أن يبدأ أشياءه بعبارة حمد للإله حتى يستطيع أن يصل إلى ما يريد، ولو قرأت بعناية لاكتشفت أنه يريد أن يبكي.

قلت وقد شدني العطر من خاصرتي: ولماذا البكاء؟

قالت: كان يعتقد أن تدوين الحزن يجلب الدموع، والدموع تجلب الطوفان، والطوفان يعني المتغيرات، وأعتقد أن الرتابة هاجس أزلي ولد مع انتظام الأشياء أمام مرأى البشر، ولأن السفر لم يكن في ذلك الوقت مصدر اكتشاف، فإن عليه أن يحزن ليكتشف. لقد استمعت مرة إلى فرضية عالم آثار حول صوت المفردة السومرية. كان صوت المرأة المؤدِّية يشبه النواح تماماً، ويبدو أن كل ما حول الإنسان مخيف, ولكي يتغلب على هذا الخوف نصب عليه سلطاناً غير سلطان الطبيعة. إنسان مثله سمي فيما بعد الملك ليقلل من تأثير الأفعال الكونية وليلتجئ إليه لحظة شعوره بالضعف، وكان ذلك خطأ فاحشاً إذ حدث العكس.

قلت: يبدو لي أن أول نداء "آه لا يرجع إلى تلك الآهة التي أطلقها آدم لحظة تناوله التفاحة حيث ذكرت الكتب أنه القنوط البشري الأول لأن ذلك يعود إلى معتقد وموروث مقدس. أنا أفتش عن آه أطلقها إنسان عادي لأنها ستكون شبيهة بالآه التي أطلقتها عندما سألت عنك وقلت وقد ملأت الحسرة قلبي: أي سعد يمتلك الرجل الذي يملك امرأة جميلة مثل فاطمة، وعندما جاء الرد بأنه لم يأت بعد. أطلقت آه موجعة ترى كيف لا يلتفت الرجال إلى جمالك السومري؟

فاض نهر أحمر على ضفاف خديها. امتلأت عيناها ببريق تأريخ متوهج، صهلت خيول، انحنى أمراء بلاطات مثيرة. ثمل شق ثيابه على أريكة في حانة أكدية. ملك قرر أن لا يغزو بعد الآن. كاهن ترك الخدمة في المعبد, والتجأ إليها يطلب اللجوء العاطفي. آخرون أوقفوا سعيهم لرفع الشكاوى ضد عربدة عشتار، مدن التحقت بالراية المجيدة لسلالة أور الثالثة طمعاً في كسب ودها، ألواح كشفت عن جداول رغبات ملوك ما قبل الطوفان. نبي ساعده قومه بتجاوز محنة الوصول إلى الله من أجل ابتسامة واحدة. آخر كان يشبه يوسف قرر أن يفتح أمامها الزر السفلي من قميصه الأبيض, فنحره سكين عاشق غيور. أمناء مكاتب بابل وآشور وروما وفارس. مدن لم تسمع هي بأسمائها قالوا: نمنح الدر والكتب عندما تقول نعم، لكنها لم تنطق لقد فاضت ألواح عينيها بحكاية عن رجل ما وعرفت أن الذي كانت تزرع في صدره أزهارها اخترقت خاصرته ذات مساء شظية على ضفاف بحيرة الأسماك. وقتها عرفت لماذا أبدى الإنسان رغبته بالبكاء أولاً، لقد أراد أن يشتري بالدموع سلامة روحه وجسده ولكنه لم يحصل على مبتغاه, وكما يقولون: من السهل أن ترسم على وجه شخص ما ابتسامة لكن من الصعب جداً أن تأخذ من عينيه دمعة. كتب الطين تحدثت عن كل شيء، وكان الموت يرتدي ثوبه الرمادي ويتحول قافزاً بين الرفوف المتماسكة بإتقان, وكلما داعبته أصابع أمينة المكتبة انحنى لها وابتسم وأشار إلى كتاب ضخم هو ما كتبه ليوناردو وولي من ملاحظات حول مقبرة أور السومرية. لقد وجد أشياء متقنة ولكن لم يجد الكتب التي هي أثمن بكثير من خواتم الأميرة شبعاد لأنها حملت إلى جهات أخرى غير أرض سومر. فلقد كانت بالنسبة لملوك الأمم المجاورة أثمن بكثير من كنوز الذهب, وهذا يبدو في الرسالة التي أرسلها الملك آشور بانيبال إلى أحد حكام الولايات والمحفوظة في لوح طيني وتقول: "عندما تستلم

رسالتي خذ معك هؤلاء الرجال والمثقفين وفتش عن الألواح الثمينة. وعندما ترى أي لوح أو أي طقس على لوح لم أكتب لك عنه ولكن تعتقد أنه مفيد ليكون في قصري. ابحث عنه، التقطه، وابعثه ليّ" وفي المقابل الهمت الكنوز النفسية السير وولي ليضيف إلى مكتبة سومر ألواحاً كتبت بحداثة وانبهار عن أشياء لها علاقة وثيقة بالبكاء, ذلك عندما يرغم سبعون رجلاً وامرأة من حاشية الملك على أن يدفنوا أحياء معه عندما يموت. كانت دلمون تمثل طقساً كتابياً رائعاً وكان السومري فيها يريد أن يرى حياة غير تلك التي يعيشها. اليوم يفكر إنسان العصر بسيارة يابانية, ومكيف هواء جنرال, وامرأة تراقصه على أنغام موسيقى الجاز، وإذا كان ريفيا فليس هناك مجال للرقص ويعوض بدلاً عنه صك من السايلو الذي سوق حبوبه إليه بنسبة كبيرة من الشوائب، ولكنه عندما يفكر بآخرته يتذكر هذه الأشياء ويتمناها ولكي يحصل عليها هناك يفعل أي شيء ليصبح مليونيرا ويبني جامعاً ويذهب إلى العمرة أربع مرات، ويملأ رصيف الشارع قدوراً كبيرة في ذكرى مناسباتنا المقدسة.

تُرى في سومر عندما بنيت المعابد هل كان مثل هذا الهاجس في الرأس السومرية, ربما فبعض الذين وجدهم وولي من رجال حاشية الملك كانوا لا يزالون يمسكون أقداح الخمر لتقدم إلى الملك النائم. لقد تحدثوا عن كل شيء وما كان في المقبرة جزء من هاجس كبير، القيثارة، صندوق الموسيقى، الخوذة الذهبية للملك كلام- دك. أشياء جميلة أخرى ولكن ليس معها مدونات كافية. لقد حملت الألواح بعيداً وكان تأثير سومر باقياً إلى يومنا هذا, وإن لم نجده في واقعنا فهو موجود في معتقداتنا وأساطيرنا. وليت وولي وجد امرأة تشبهك يا فاطمة لخرّ صريعاً من الهوى. ابتسمت انثى المكتبة وأرملتها الجميلة. ترقرقت في عينيها دموع ذكريات الأمس وتذكرت أحلامها الصغيرة وكيف عهد إليها أول مرة أن تعتني بالمدونات الهائلة لإرث أجدادها, وعندما سألها مدير المتحف من أي مدينة أنت؟ ردت بحماس: من الناصرية.

- حسن: اعتني جيداً بتراث أجدادك.

لقد أتوا بي إلى هذه المكتبة، ويبدو أنهم فعلوا حسناً فشروحات السير وولي عن أور الكلدانيين كشفت لي أمراً عجيباً فثمة كاتب سومري هواجسه تشبه هواجس أبي من حيث القلق اليومي والرؤية الفنتازية للأشياء وأنا مثل أبي، ويبدو أن هذا الكاتب أحد أجدادي فعملت مخلصة كي أرتب هذا المجد المنضود وأستفيد من كل ما دون على الطين حتى أنه منحني القدرة على رسم الأشكال الحقيقية للآلهة. أنظر هذه أنانا لقد رسمتها من وحي الرؤى المدونة على الطين. هل شاهدت امرأة في جمالها.

حقاً لم أشاهد. ولكنه شكل لحلم طالما طاف في ذاكرة المنام لكني لم أميزه جيداً. إن هذا الوجه قد أعرفه. آه نسيت أنه وجهك!

مرة أخرى طفح الموج الأخضر في نهر خديها وقد شعرت بضرورة أن تكون المرأة أمام رجل تريد أن تقول أنني عشتار.

- وإن كانت عشتار في هذا الحسن فهي أنت حتماً

- ولكنها لن تفقد إنساناً كانت ترى فيه جموحا نحو عاطفة امرأة علمتها الألواح كيف تدون, وكيف تريح رأسها على صدر رجل.

- عشتار كانت تحب أيضاً ولكنها لم تقتنع برجل واحد, لهذا لا أريد أن تكوني أنت هيَّ.

بعد أن غادر العالم بعربة الفردوس طفت في المفردات المحفورة بنار الحلم فوجدت ألف رجل. أمراء، محاربين، كهنة، شعراء، مرات أتأخر إلى ساعات متأخرة من الليل فتهتز فيَّ رغبة الأنثى إلى الحنان.

أفكر في أحدهم ولكنهم لم يكونوا بوعي متحضر. إن أشواقهم مرهونة بالسيف ونساء يجلسن وراء أسوار البيت, وبعضهم ينسى أن في العالم امرأة من كثرة شغفه بتقديم النذور إلى الآلهة. تصور أن أميراً جميلاً مثل أور– نمو من عينيه تشع ذكورة لذيذة وأطياف ملكية ساحرة كان يترك الملكة تنام من دونه لمدة عام. نصفه في المعبد ينتظر إرشادات كاهن الزقورة, والنصف الآخر في الحروب. وهكذا كانوا أما الذي كان لي، كان أميراً حقيقياً. عطري هذا الذي يسحر فيك الرغبة وينسيك التجوال في أروقة المكتبة كان يدفعه إلى إمساك النجوم ليصنع منها عقداً لي. قلت: امرأة ساحرة مثلك تمنحنا القدرة على إمساك النجوم وما يفعله لأجلك لن يكون عملاً خارقاً فأنت عشتار ومن تريدينه ستهبينه قدراتك، وحدها المعجزات تنتهي أمام جمال النساء وأنت جميلة يا فاطمة.

لا أدري ما الذي دفعني إلى تلك المكاشفة! ويبدو أن الألواح وصلت بيننا حبالاً من المودة والصحبة، فالكتب تمنحنا القدرة على أن نخطو فمنها تعرف الذي سيحل بأيامك القادمة. أهل سومر كانوا يعرفون، لأجل هذا تعددت عندهم الآلهة لأنهم يعتقدون أن أية ظاهرة كونية منفردة يمكنها أن تقضي على حياتهم, فكان لكل مدينة إله, وأجمل ما عبدت سومر كان إله مدينة أور "ننار" إله القمر ليكون الدرع الواقي لأحلامها وهي تهز عذوق النخل وأكتاف العذارى وأوتار القيثارات التي تحرك شهوة الأقلام لتدون بمسمارية بريئة مشاريع وهم زرقاء عن آلهة ستسلك طريقاً منزوية لتغب الخمرة مع عامة البشر, ولتتعلم من بساطتهم أسرار من يعيشون تحت فالعلياء- كما تقول الألواح- تمنح الغطرسة والخلود، ولكن خلودا وعمرا بدون مآثره لن يساوي بطولة يوم واحد في حياة الإنسان.

- وحبيبي كما تقول فاطمة. كان يومه بطولياً لأجل هذا رأيت الألواح تبكي عندما تسرب همس شهادته بين أروقة المتحف - وكنت لم أعلم بعد- وعندما رأيت الدموع تجري منتظمة بين الرفوف الصلدة تملكني فزع فربما هناك ثقب في سطح البناية يتسرب منه الماء وستتلف الأحلام المدونة بعناية لكنني عندما عرفت أغمي علي، ومتى أقف كانت أنهار الدموع قد انقطعت. قلت لواحدة من الزميلات: أخبري المدير أن خزانات البناية تنضح ماء.

- قالت: ليست الخزانات, إنها الألواح تبكي من أجل حبيبك. منذ ذلك اليوم تعلقت حبا بالألواح وعرفت أن الأحجار في بعض الحالات يمكنها أن تتضامن مع البشر, وأن ثمة من يعيش بروح بينها, لهذا أردت في أحيان كثيرة أن أقضي الليل بينها ولكن الحراس أرعبوني لأن ثمة أرواحاً تتجول في الأروقة ليلاً وتتزاور فيما بينها: أرواح مسالمة ولكن أشكالها تفزع النساء, ونحن لا نتحمل المسؤولية أن تبقى معنا، فأنت امرأة لهذا كانت خلوتي معها أثناء الدوام وشعرت أن هذا العالم يحبني قبل أن أحبه وحتى في أيام العطل الرسمية كنت أرى الوجوم على وجه الطين عندما أعلن لـه أن غداً أول أيام عيد الفطر. هذا الاشتياق احتفل بالأشياء الجميلة فعندما تتصل بكتاب فلا بد أن يكون الأصل امرأة، واللوح كتاب من الطين استطاع كاتبه أن يوجد معنى بدائياً

للحياة، تلك البدائية التي صار من الصعب استحضارها في عصر معقد مثل عصرنا, فالكتب هي نوافذ حلم مفتوحة الصدر لاستقبال كل قرار مجنون والجنون البدائي كان يبدأ بالتوسل إلى الآلهة وينتهي بإعلان الحرب، وعندما أعلنت حربي على السعادة لأنه غادر بصمت كان على هذه الكتب أن تملأ الفراغ الذي عشته ومرات رأيتها تسقط مزناً مضيئة على أجفاني عندما أعلن في أوروك أن جلجامش وجد خله وأنه لن يتعرض إلى أي عذراء على أرصفة المدينة ليغازلها أو يجبرها على فتح حقيبتها المدرسية. تلك هي الكتب, ترتب أفعالها برغبة التكوين, وترقد في قلب المرأة لتشكل عاطفة حميمة, وعند الرجل تتحول إلى فعل عصبي يتوارث منه الشعر والقرارات الصعبة, ومنها الانتحار, فالذين يموتون لأجل النساء أكثر من اللائي يمتن من أجل رجل.

قلت: هذا اعتراف بأحقيَّة الرجل ليقول كلمته أولاً.

قالت: الألواح فعلت هذا. قديماً كان الرجل هو الذي يتلو كل شيء ولم نعرف من أنوثتنا سوى بعض مغنيات المعبد وما تركته بو- آبي من حلي وصناديق موسيقى, رغم أن المرأة تشعر بالرجل, بأشواقه أكثر مما تشعره بها نفسه ولهذا دقق موجوداته من خلال أنثى تخيلها، وكل ختم على شكل وزة كنت أرى فيه أنثى ممتلئة، حتى الأدعية كانت ترمز لأنثى من الآلهة لكي تجلب برقَّتها الرحمة من قلب آنو القاسي. هم لم يذكروا خروفاً من أدبياتهم بالقدر الذي ذكروا فيه شاة أو معزة، وأول نص أدبي كان عن هبوط الآلهة عشتار إلى العالم السفلي. إن سومر مكتبة لروح المرأة. عندما تريد أن تتجول بها اعترف بذلك.

مرة أخرى يسافر في ذاكرتي ذلك التيه الأزرق. لقد ركب زورق الحلم, وأراد أن يفضي بحسرات الكتابة والرغبة في إيجاد ما يجعلنا أكثر سعادة. كانت سومر واحة من الصفاء لذهن البشر. زقورة عالية، وآلهة لا تمانع أن تغرق وحبيبتك في وعاء كبير من الخمر. حروباً لا تطلق فيها الصواريخ، بل نبال صغيرة تجرح عاطفة المحارب وتعيده إلى بلده سعيداً، أسواقاً ممتلئة برائحة العشب والأسطورة في سطور فسيفسائية تجد عندها قلباً متيماً وذاكرة سعيدة. ذاكرة لا تتحسر على مقعد طائرة ذاهبة إلى مدريد, ولا رغبة بمصافحة رونالدو لاعب البرازيل الأول, ولا حتى أمنية بوجبة طعام فاخرة في مطعم البحر الأبيض. كل ما تريده هنا تطوف في مدن الألواح وقد غيَّرت أمينة المكتبة عطرها اليوم إلى نفحة من ماركة لا أظن أن أي بلد محاصر يستوردها "كوليرج" ذات العطر الذي استخدمته الليدي ديانا في آخر أعياد ميلادها. أيتها الأميرة السومرية صديقة الكتاب وربيبة الحرف المسماري إن ساعة معك تُغني هذا المسكين الذي رمته أقدار الوظيفة إلى التاريخ, ليهرب من خلاله من لهيب الأسعار واقتراب العام الدراسي ومطالب نور ابنته.. أبي أريد صدرية وحذاء وقميص شيشان. أحسب السعر لأجده يفوق عشرات المرات لما أنفقه سرجون في حفل تنصيبه ملكاً للجهات الأربع.

وفي لوح عرفت أن ما تطلبه ابنتي يستطيع به آبي- سين أن يشتري ثلاث بواخر حنطة استرالية, وينقذ سلالة أور الثالثة من الانهيار, وبين الخيارين فضلت أن ألبِّي طلبات نور.

كان العطر الذي ينفثه صدرها كالنسيم الذي كنا نشمه في وديان بنجوين، يوم أرغمتنا الحرب أن نؤدي التحية حتى لعرفاء الفصائل ونشم مشعلي نارها بسرية وكتمان.

قلت: في الحرب: الكتاب هو مرآة الحقيقة. أجدادنا عندما يعودون من العراك مع مدينة

مجاورة بسبب مجرى ماء صغير ينحتون مسلة نصر يدونون عليها الشعر والتعاويذ وأسعار قبلات نساء الحانات ومهور العذارى وآخرون يضعون تواقيعهم إلى جانب توقيع الملك نارام-سين. نحن عندما نعود إلى المدينة بعد شهر من العراك في ربايا الثلج. لا نكتب، لا نقرأ. نملأ جيوبنا برسائل كتبت في لحظة جنون, ونوزعها إلى كل من تضرب على رصيف الشارع بإيقاعات أنثوية تقول: إنها تنتظر من يطرق باب القلب ويعطي رقم هاتفه.أنا لم يكن لدي هاتف فكنت أعطي مواقيت مناسبة لكن أي واحدة لم تأت, فأعود إلى وسادتي لأختار وجهاً آخر لصباح قادم, عندما يبكِّرن بنات المحلة بالذهاب إلى دوائرهن أو إلى المدرسة الاعدادية المجاورة. هذه الطقوس دونتها على ألواح الصبر قصصاً وهمية وخواطر مستعجلة، وعندما اكتمل اليأس في رأسي وأطرافي السفلى هززت السرير وكتبت، ذلك أنساني خيبتي مع النساء لبعض الوقت والآن تنفحك العطور رغبة الامتلاك وتسجد الكتب في أيوان أحلامك. تأخذك المدارك بعيداً وتستقر في عينيها معادلات الجبر والتراتيل المقدسة ونداءات استغاثة أطلقتها المراثي يوم جاء غرباء إلى هنا ليكسروا اللوح وليصبوا ماء النار على ما تحدثت به قلوب العذارى والآلهة. أقول لك سيدتي. إن الذي يموت في الحرب ويخلف امرأة وكتاباً لا يسمى موته رحيلاً أبداً. إن الآلهة والعامة من الناس سيرغمون آنو على عودته إليك فالكتب مانحة القدرة وبوابة السحر واحة لقدسية لا تصل إليها أي ذاكرة. وذاكرته ربما مثلي كانت تصنع من أزيز الشظايا مفردة حب وتطلقها مع الطائرات الورقية التي يطلقها الصغار بعد انتهاء كل غارة وابتعاد الطائرات المغيرة.

يا فاطمة مرةً احصيت الدوائر التي رسمتها في النهر من حجر رميته, فكانت عشرات الحسرات المطوقة برغبة للبكاء. وكانت الحرب تضغط على جسدي مثلما يضغط الشاعر على ورقة أحلامه ليدون عليها قصيدته، في كل مرة أقول سأموت غداً، ويأتي الغد لأجد وجهي أمام كتاب ما في مرصد متقدم. ربما كان لحبيبك رفقة معي، فلقد عرفت الكثيرون من أبناء سومر من لهم ولع بقراءة العيون والألواح، كانوا عشاقاً ومحاربين والذي يرحل منهم بعربة قش جميلة كان يترك لي إهداءً صغيراً وختماً حجرياً طرز عليه اسم حبيبته وعنوان بيته وفصيلة دمه، وعندما يرتدي العلم ثوباً لرحلته الأخيرة أضع قرب رأسه كتاباً ما. واحدهم رغب قبل رحيله قصائد لكفافي. قلت لـه لماذا؟ والجميع كانوا يرغبون بحكاية لواحدة من ألاعيب عشتار؟ قال: إن اكتشاف مدينة الحلم مثل أيثاكا يعني رغبة بالوصول إلى حس أجمل. ربطت فعلاً قصائد كفافي مع ألواحي فوجدت أن حبلاً غليظاً يربط بينهما وبما أن الألواح كتبت قبل الزمن الذي تحدث عنه العجوز اليوناني لهذا ما كتبته كان يمتلك الجذور السومرية. حقاً إن إيثاكا ربما هي مدينة أور أو أريدو أو غيرها من مدن سومر.

فاطمة. أنا لا أعي قدرة التوجه إلى الكلمة بفعل عقلي ورغبة في الظهور على الشاشة, وليس للكتب أن تكون مصدر وعي لهذا الانفلات الصعب في عالم لا ندركه إلا في الغوص إلى العمق. كان الجنوب هو الكتاب الذي علمنا أن الخطوة نحو المرأة أو القصيدة تبدأ بجرح في الخاصرة. أهلنا وبيئتنا والمضايف وحقول الرز وأشواك الطرق النيسمية هي الكتب الأولى, والذي تمنى إيثاكا؛ كان يتمنى قرية في ناحية الطار أو العكيكة أو لارسا التي هي اليوم تسمى البطحاء. المدينة صديقة الكتب. والحرب أيضاً والذي يموت في حرب هو صديق المدينة والكتاب معاً. إني أمجد فيه روح المفردة، وأحاول أن أزرع في عينيه رغبة لوح كي يكون بديلاً عنه لأن القدر شاء أن يأخذه منك وأنا لا أريد لزهرتك أن تذبل من الذكرى.. حسبتها تبكي، لكن عينيها ظلتا تتطلعان في وجهي بشرود غريب. كانت قبل لحظات تمثل دور امرأة تمنح الرؤى وتضيء الشموع في

عتمتي. لكني أفلت الخيوط من فراشات ذكرى ومنحت المكان فضاء من التحليق إلى عالم كنا نحبه معاً قالت: لو لم تكن لك زوجة لأيقظت فيك الحنين إلى ما سيكون. أعترف الذي كان مضى ولن يأتي. ولكن يا سيدي الحب عندما تجرح فيه العاطفة، لا يرتقي إلى مستوى الخلود. وأنا هنا وسط الطين الخالد، كل رقيم يلهبني الحماس لكني سرعان ما أجد نفسي وحدي جالسة في قعر الكأس أرقب فصول ثمالة الآخرين ولا ألفت انتباه أحد رغم جمالي. ومثلك التجأت إلى هذا العالم أقيم معه الصداقة البريئة وأشرب من عصير الآلهة لأنتشي برهة من الزمن ثم أنهض لأفهرس الألواح من جديد, وفي كل مرة أكتشف أن الجنوب يختلف عن جهات الأرض الأخرى، فالمدن هنا أسستها الآلهة وغيرها أسسها بشر. ولذا الإنسان في الجنوب احتضنت فيه الآلهة صورة خلق جديد لحضارة عاقلة وغيره يتلقى ما يقوله الجنوبي ويطوره في بعض الأحيان، كان فعلته بابل وآشور وغيرها من الممالك القديمة.

كان الحب ولا يزال يبدأ بمفردة مرتعشة، كذلك الموت ينتهي بذات المفردة, والذي ودَّعني دون أن يمد يد المصافحة. كان خليقاً به أن يكون بطلاً أسطورياً لواحد من نهاراتي الجميلة بين كائنات الحجر الحي. كان جميلاً وذا قوام رشيق مثل نخلة، وكان يدفع إلى صدري قراءات رائعة بشتى المذاهب، وكانت قبلاته زهوراً ترمى علي من الجنة، وعندما عرف أنني أصبحت أمينة لمكتبة سومر قال: الآن أستطيع أن أطوّر فيك الأنوثة وأقربك من مصاف الكاهنات وفعلاً بعد مرور عام، كنت الكاهنة الكبيرة في معبد صدره أشعل لـه لهفة اشتياق بعد فصل شرس من الرمي المتبادل بين سريته والعدو. كانت الحرب أسطورته الجميلة وكنت أنا مكملة لخاتمة هذا السفر الذي أراد به أن يتجاوز ذاته. قرأ الكتب، لبس القلادة السريالية، صار اشتراكياً، وفوضوياً، قاد خيوله إلى رومانسية جامحة وفي الآخر اقتنع بقلادتي لتتدلى فوق صدره العاري، وضع الكتاب جانباً وخيم على الغرفة صمت وانبعثت من تحت الوسادة موسيقى هادئة وملأ الفضاء رائحة العطر بخور هندي، قال وقد هامت به الأشواق: لتكن هذه واحدة من غرف المعبد السرية يا كاهنتي، قلت: وهل تجلس الكاهنة لتتأمل عري صدر كاهنها؟ قال: كلا. بل تتقدم صوبي وتنثر فوق هذا الصدر قمحها.. كل عام يأتي موسم الحصاد. قصص رائعة وقصائد لا تنسى. وفي العام الأخير من الحرب. كنت قد أيقنت بأن أبديتي هو هذا الحبيب السومري. لكن الألواح تقول ليس كل يقين يتحقق.. ويوم انتبهت إلى نفسي ورأيت دموع الألواح, عرفت أن الكتب قد لا تصلح بديلاً عن الرجل ولكنها أفضل البدائل عندما يفرض عليك واقع ما وتحس أن لا رجل غيره يصلح للتجوال في هذه الحديقة. أنا لا أريدك أن تكون أنت. لأنك لم تأت من الحرب بشيء، ولا حتى بجرح. والوظيفة وحدها من جاءت بك إلى ألواحي الجميلة ولكنك تعلمت من الحرب أن تفكر بجرأة الكتب، ولأنك سومري تستطيع أن تستدل على بيت الحلم دون بوصلة وعندما تصل ستجد أم أولادك تنتظرك. خيبة بالنسبة لك وبالنسبة لي أيضاً. كثيرون اقتربوا مني فلم أجد فيهم العطر الذي يجعلني أقفز من السعادة. كان لمطره الممتزج بالتراب يد توقظ حتى تماثيل الآلهة المنسية تلك التي لم تذكر المدونات اسمها وكنا نجلس معاً نرتب لها تاريخاً جديداً. هذه الآلهة للفراشات فقط. وتلك آلهة للشعر، وهذا التمثال الصغير إله الحلم.. وذلك الإله للدموع. والضخم هنا إله الصخر.. كنا نصنع تاريخاً جديداً لعالم يمنحنا الثبات والنشوء.. عالم أدركنا فيه السر وأصبحنا أكثر قدرة على مزاولة ألعابنا الصبيانية.. الاختباء خلف الآلهة المصطنعة في الطابق العلوي. الدوران حول تمثال كوديا، من يمسك منا الآخر. نعصب عيوننا ونتزاور سراً في الظلمة تحت أردية الكهنة ومغنيات القصر, أشواق لا حصر لها في لحظة حلم تضيع والسبب دائما هو الشظية. في سومر كانوا يصنعون من الشظايا أقلاماً ليكتبوا فيها رسائل الحب، والذي أدركناه من ذلك العهد القديم جعلنا

ننحني إجلالاً لفعل القلم ليكون نافذة لرؤى الإنسان تجاه العالم فالكتب القديمة سماوية كانت أم بشرية تحتاج اليوم لتدون ما هو مقارب لفعلها الفكري والجمالي آلاف الجامعات والمعاجم. عهود دونت بغرائبية توقننا أن السماء والآلهة وراء من جعل الشظية قلما, ويبدو أن الآلهة والسماء وراء من جعل الشظية موتا، وفي كلا الحالتين هناك اختيار لقدرة البشر على أن يكونوا أرضيين ويحق لهم أن يسجدوا لمن أنزل آدم، وأعطى لإبراهيم بطاقة سفر مفتوحة، وهو ذاته الذي علم الإنسان ما لم يعلم, وأعطى لنوح مطرقة ومسماراً. أن العلي الذي تحدثت عنه الألواح هو واحد رغم أشكاله المتعددة، وكان الإنسان في كل معنى من هذه المعاني يمثل الهاجس المشترك، والرجل الذي رحل ذات مساء على ضفاف بحيرة الأسماك كان الهاجس الأجمل في جسدي أنا المرأة التي أمامك فلا تدع رغباتك تنطلق صوبي.. الألواح لنا نحن الاثنين.. فيها ما نشتهيه معاً.. قد يكون الحب وقد يكون الحرب، ولكن سومر تعرف منذ البدء التآخي بين ضفتين. قد نلتقي ولكن دون أن نتلامس. زهرتك في كتاب عليه صورة ابنتك التي تركت قمح أور ورغبتها في إنهاء المجاعة واشتريت لها قميصاً وحذاء ودفاتر مدرسية.. أنا زهرتي في كتاب عليه طيف رجل سومري.. أراه الآن.. يمسك كتاباً وزهرة، في الكتاب صورتي.. وفي الزهرة هذا العطر الذي تشمه الآن.

أحزان نوح السومري

السومري، رجل ختم أحلامه على أجرة الزمن, وتوحش في ذاكرة عيلام, وعشق صافرة القطار والنساء المنقبين وأشياء يخشى ذكرها الآن، لأن الكاهن- مارام سين- يتلصص مثل بوم نتفت ريشه العاصفة من خلال ثقوب نافذة المعبد. اليوم نودي في أور أن تايتانيك ستبدأ رحلتها الأسطورية إلى أرمينيا، ركابها من طراز خاص، شرفاء السلالات وتجار السمن والطحين والنخبة من الشعراء وندماء الملك وراقصات العصر وساقي نباتات الظل في غرفة الأميرة الساحرة بو آبي مارا- والتحق في اللحظة الأخيرة حام وسام ولدا نوح لتسفيرهما لحظة الوصول عبر طريق بري إلى ألاسكا لنشر ذرية بشرية سيطلق عليها أبناء الكابتن كوك ذرية تحمي الفقمة والحوت والأوزون من التدمير.

كانت المدينة تتمايل على أضواء بنفسجية لليل شتائي، عندما قررت أن أغادر وأتخلص من الخدمة في حانة الجنود، وأتسلل إلى السفينة، رغبة مني في الهجرة إلى مدن الضوء والسلالات البعيدة. أعرف جيداً أن ثمن عدم النجاح في الوصول إلى السفينة هو رقبتي، ورغم هذا غامرت، ففي لوح أخضر دونت الآلهة في واجهة باب زقورة المعبد ما نصه (الإنسان محاولة، ولأجلها بعث إلى الأرض).

المعلم أراك –سادي- أوما، كان معجباً بهذه العبارة وقد دفع رقبته ثمناً لأجلها, إذ حاول صفع الكاهن الأكبر لاختلافهما على معنى حرف مسماري يغير معنى عبارة يحيا الملك، بعد أن دونها بيديه، وعندما طلب الملك بعد زمن من معلمي قراءتها، والعبارة كتبت في لوح ذهبي في عيد تنصيب الملك السومري كلام- دك، صاحب الخوذة الشهيرة. قرأها الكاهن، تنحى الملك وكانت قراءة صحيحة, ولأن الملك يجهل القراءة والكتابة فقد عرف المقربون قصد الكاهن. أنها إشارة لمؤامرة قادمة.. ولكي تقطع الخيوط الأولى دفع السم إلى المعلم بكأس نبيذ، وفضَّل الكاهن الكبير أن يكون أحد سكان الأسكا الجدد، ويسافر على ظهر الباخرة تايتانيك، تلك قصة معلمي في المدرسة الابتدائية- أور- آثار.

والآن تندرس العصور مثل الأنهر المتفرعة، وتبقى وحدك في عنبر الشحن تنتظر الوصول إلى فردوسك المجهول وتحاول جاهداً أن توقظ ما بقي لك من ذكريات في المدينة القيرية.

كانت السلالات التي ولدت من زفير الآلهة تستعرض فتوتها على ظهر السفينة، وهناك تحت الشراع الهائل انزوى ابن آوى يرقب حركة سكان المعمورة، وعلى الشراع هناك حمامة، وعلى كرسي قديم جلس شيخ تجاوز بسنه الألفية، شيخ بكبرياء ملك، ولكنه شارد النظرات، مستغرقاً في سبات الماء وقرب قدميه كانت تنام فراشة وعجل. كنت أراقب ما يجري على سطح السفينة معتقداً أن هذا الشيخ الشارد بذهنه نحو الجنوب، ربما هو الكاهن الذي فضل النفي على أن

يبقى في أور كقاتل لرجل تربوي.

في طفولتي الأورية ثمة صدى لحضارة الفقر وسعادات صغيرة كنت أجمعها في صناديق من الطحين، أعرضها للبنات الناهدات، طوابع من مدن أبعد من لارسا، زجاجات شراب فارغة، علب كبريت، ألواح عن حسابات دوائر ملكية، وكشوفات لرواتب الجنود الذين عادوا قبل سنين طويلة من حروب مع أوما وعيلام والقرى الآشورية، حاجات مفقودة، خواتم وبطاقات شخصية، ودمى مكسرة رمتها من وراء الأسوار خادمات قصور تجار البيض والسمنة والفواكه والحليب المجفف وصنَّاع قطع غيار السيارات، وبها أصنع عالماً من الخبايا والتمني، لكن الطفولة لا تدوم مثل سديم مضيء في سماء عالية. إنها محطة تنتهي بك إلى متاهات كبيرة واحدة منها هذا السفر الغريب. وقد جاورك لقلق منارة الجامع وسألك من ثقب صغير سأجيء إليك بكسرة خبز ولأنثاك سآتي إليها بنبيذ.

قلت: أيها اللقلق أنا مسافر وحدي.

قال: وكيف سمح لك نوح. المسافرون من كل زوج اثنين.

لا أعرف طبيعة الرحلة، ولكنني قفزت إلى السفينة رغبة في مجهول جميل, قالت عنه ألواح معلمي الذي مات بكأس من شراب العسل، المجهول عند السومري جنة مفترضة، قصورها الأحلام وغاباتها الشهوات. الذهاب إليها مغامرة، والوصول إليها حياة تدفع إلى اكتشاف ضوء القلب، وضوء القلب أكثر لذة من ضوء القمر.

أيها اللقلق أنا أبحث عن ضوء القلب, ويبدو أن قدر نوح هو قدر هذا المجهول. سيرضى بي عاجلاً أم آجلاً، لأن السفينة تحركت، وسأكون مفرداً بين زوجين، ولربما سأكون اغتراباً في عين النبي الشاردة. إني أراه حزيناً، وأمس مسح عن خديه دموعاً كاللؤلؤ، ترى لماذا يحزن سيد الرحلة؟

قال اللقلق: حزن الأنبياء يصنعه إنسان معاند، لا يعرف طريقاً للسماء. إنسان غرق الآن لأنه افترض لخلوده آلهة من طين وعجين وسكر، فيما يدعونا نوح إلى إله لا نراه ولكننا نحسه. إله يشتعل بذاكرة الطريق وفي جسد المؤمن يصير بساطاً وكسرة خبز.

حزن نوح لأنه يأتي بنبوءات قلب طيب فلا يصدق. حتى الطيور رفضت أن تصعد في رحلة العمر، لأن الأرصاد الملحدة قالت: ستنكسر السفينة عند أرارات ولن تصل أرمينيا. نوح عندما أعلن عن رحلته الأبدية أعطى لكل مسافر عهداً بالوصول الآمن. وعندما أعلنت أور عن رغبة أبنائها بالسفر منع الملك ختم الجوازات ونشر الجنود على طول الساحل، ولا ندري كيف وصلت أنت. النخبة فقط من سمح لهم، وهذا هو سر حزن نوح. أن تايتانيك سفينة مشبعة بصناديق النبيذ وخفايا علامات الأسر الأميرية، حتى حيواناتها من فصائل تربت في حدائق القصر، والهر الذي أتوا به مع أنثاه وجبته الصباحية فأر سمين وكأس كونياك..

تذكرت وجباتي التي يزهو التمر منها مثل شاعر على صدر الألواح, ويتألق الخبز مثل عارضات أزياء المعبد، وكنت في طفولتي أنعم بخيالات جندي برع في وصف حرب أحشائه, وكان أبي يضع خططاً لاجتذاب تموز إلى بيته كي يفجر في وجه عشتار صحوتها وتترك دعارة

أسرة العشب وتنتبه إلى الفقراء من أمثالنا.

تسير السفينة بخيال رسام ماهر، ويتعالى موج رمادي على مساحات لا تنتهي بنظر. وكان منظاري منقار اللقلق، فمن نوائب الدهر أن تترك صداقة الحمام وتلجأ إلى لقلق فضولي أسئلته بحجم قارة من الثلج, ونظراته أكثر سعة من نظرات أهم عملاء سي آي أي، ولأنه لم يرغب بتساؤلاتي، طار بعيداً على دفة المركب وأشار إلى أحد الربابنة كي يخبره بمكاني، وما هي إلا لحظات حتى اقتادوني مذنباً أمام من كنت أقسم بطيبته كل طفولتي: نوح.. سليل آدم الذي قالت عنه الألواح أن كل إنسان في سومر يرجع من صلبه.

قدموني للنبي المشع بابتسامة الخفاء وبحزن أبدي قرأت فيه أسباب الرحلة، فعرفت أن نفي الأنبياء هو اليباب الذي تحدث عنه إليوت في قصيدته. كانوا يريدون منه حكماً دوّنه قبطان الرحلة. أن أُرمى في الماء لتأكلني أسماك القرش, ولأكون عبرة لكل من يتجاوز سور أحلامه ويفكر بسفر صوب مطلق تحدده إرادة المعبد لا إرادة محلات أور التي وصفها وولي بمتعرجات المستقيم الواضح, حيث تظهر البيوت رغبات شرفات مطلية بنظرات عشق غريب للصحراء والآلهة التي طال انتظارها لتوقف طموح الأمير عند حده، وآخر تلك الطموحات, تلك الرحلة التي كان فيها نوح واجهة فقط، أما الربان فهو في خدمته السابقة كان رئيساً لأركان جيش السلالات حيث ساهم- وبسادية غريبة- بقتل كل شجرة نبتت في عهد سرجون الأكدي، ويقال أنه أرغم الآلهة على أن تغير الاتجاهات الأربعة التي ملكها سرجون وجعلها اتجاهاً واحداً أمام جهة القصر أو مخلب النسر، ويقال أيضاً أن رئيس الأركان هذا تأثر كثيراً بمبتكرات جنرال موتورز ولوكهيد, وأوصى لسفينة الرحلة الثنائية محركاً من مصانعها، ويقال أيضاً أن المدافع البعيدة المدى المنصوبة على ظهر السفينة قد استعارها برسالة ملكية من حاملة الطائرات أيزنهاور.

هذا تاريخ ربان السفينة. وقد كان مجهولاً لدي، لأنه كما قال منذ أيام طفولتي قد جيء به من سبي بأرض كنعان. أما تاريخ نوح فكل حجارة في بيت أوري تعرفه. هو لم يتجاوز مساحة الحلم إلى خارج حدود ذراعيه. كنا نرى سماء مبسوطة بين يديه لذلك بدا لي أن تاريخ الأنبياء أصفى مرايا الوجود، أما الربابنة فتاريخهم مرتبط بخطوط كولومبس الذي ملأ صدور سكان أمريكا الأصليين بالرصاص.

قال النبي بنبرة إشفاق جنوبية: لماذا صعدت منفردا؟

قلت: لأن الله أنزلني من رحم أمي منفردا.

- وأنا أيضاً، لكن القادمات من العمر أتت بالثاني, والذي يشاركني الرحلة الآن، عدا ولد عصاني. الثاني افتقدته بلحظة طيش حربية.

- كيف؟

- سهم ما، لا أدري من أين جاء واستقر في صدرها، ويقول الذين شاهدوا موتها أن رخًّا محملا بالحديد كان يحوم في سماء أور ماذا يملك المعدم حين يموت الثاني فيه؟ السفر. لا شيء يوازي ضياع المرأة سوى السفر. أيها النبي لي معلم شرب كأس عسل خيارات وجوده، وأغمض أجفانه من أجلك. قال لي مرة: أيها الولد إن الولادة في سومر تعني فتحا في بشرية المطلق.

قلت له: معلمي المطلق للآلهة وحدها.

قال: والقديسين قبلهم.

قال نوح: القديسون أصحاب الأنبياء وشاربو نبيذ موائدهم. حكماء أور لا ينتهون ومعلمك واحد منهم.

قلت: في بعض مدارك الحلم توجهت إليه، لأن الوحدة تعوضها حكمة الأصدقاء ، وفي لوح مكتوب بمكتبة جدي ما نصه: "تدرك وجودك لصديق أوفى من الفراشة للزهرة، عندما تشعر بأن الوحدة آتية بقدر من آنو، وعندما تكون وحدتك من صنيعة الملك، فالصديق يصير قمرك وعندما لا تجده استعن بالسفر). وها أنا أمامك أدفع ثمن وحدتي لأن صديقي شرب كأس العسل مرغماً.

دمعت عينا النبي. دموع الأنبياء أمطار من اللبن. قفز ابن آوي ومن فرط سعادته غرق في الدموع، وعندما امتلأت بطنه وضع ساقاً على ساق ونام. اللقلق من فرط شغفه بطعم الدموع قبَّلني وقال: انظر هذا ثمن الوشاية. لبن بطعم الشهد. الحمامة نزلت مع أمطار اللبن دموعاً من سكر. الهدهد رمى كيس الرسائل وانحنى قريباً حزيناً مثل شجرة يابسة، أما الربان القاسي فقد أمر العسس أن يجففوا ما على سطح السفينة من لبن وأن يستعجلوا النبي لنطق الحكم المعد سلفاً.

قال نوح: الأنبياء لا يطلقون الأحكام. أترك حسم دنيويات البشر إلى المسلات. الله منحنا ما هو أهم، أن نرى ما خلف الجدار، وأن نعيد للبندول توازنه، وأن نوقف البحر على قدميه وأن نشعل للمدن قلوبنا وأن نُري الأب شجون الابن وأن نتعلم رياضيات الحرب، وللنساء نعطي حكمة الموائد، ولربان المركب فضيلة الشراع، وأنت تمتلكها بعد الخلل في حسابات الرحلة. أو أنك قبل قيادة المركب كنت سائساً لخيول عزرائيل.

غضب الربان, ضرب بقدميه سطح المركب, اشتعلت في حدقتيه تنانير مخافر أور، وأراد أن يرفع إلى الفضاء عصا غليظة، لكن نوح رغم سكينته العجيبة أومأ إليه بأجفان راجفة، فتراجع مثل مصارع مهزوم وعاد إلى قمرته، داعياً حاجبه لجلب زجاجة الوايت هورس خلفه، وأن يعيدني إلى عنبر الشحن ولكن بحراسة مشددة.

قال النبي: لقد منعت عنك أيها الوحيد سمك القرش، ولكن الحكم عليك لا يزال مثل قدر ينتظر بدء الوليمة، أخاف عليك من شاهدة الصاري.

في أور كانوا يطلقون على عملية الصلب (شاهدة الصاري) معلمي أرادوا له موتاً كهذا، إلا أن صحافة أور المكتوبة على ألواح ملونة شمت رائحة الفضيحة فخاف القضاة ومنحوه موتاً رائعاً:

"كأس العسل المسموم".

الذي يموت بعد عصر من الحزن ينتظره الحساب، والذي يموت بعد عصر من الفضيلة تنتظره دلمون, قال نوح هذا ثم أضاف:

"لو جئت بظلها لحسبناه ثانياً لك ولصحبناك في السفرة معنا".

أعادوني إلى عنبر الشحن, معي وضعوا اللقلق والثعلب لأنهما شربا دموع اللبن كلها، ولأنهما غير آمنين لذت إلى صمت المتأمل وأدخلت ذاكرتي في منطقة الحزن لأن الفضيلة لا تأتي بمجرد رغبة سفر. إنها تأتي كما يقول معلمي بعد هضم ألواح سومر كلها. وأنا لم أدخل في جوفي إلا حكمة ألف لوح لهذا انتظر مع اللقلق وابن آوي حساباً أمام الآلهة رغم أني أدرك أن في كل حياتي الذاهبة لم أصفع حتى خيال حمار، لذا سكنت إلى نفسي ارى أن الجسم الذي سيجرب شاهدة الصاري سيرفع بمحفة من ريش نعام وصلوات شعراء الحانات، سيرفع إلى دلمون مثل ارتفاع الشهيد القديس معلمي. أما هذان النذلان اللذان تفوح من إبطيهما رائحة اللبن الرائب فمصيرهما الذبح وأفران الآخرة المستعرة.

في حكمة سومر تجد المتعة والرؤى، ومن ثقب السجن ترى العالم من أوسع نافذة. تمتعت بمشاهدة الحياة على ظهر تايتانيك. كانت هناك موسيقى لقيثارات إسبانية، وبعضهم فضل أن يطلق ناي الراعي العاشق. وأمير ثمل تفنن في العزف على الكمان. إنهم ينشدون إلى رحلة جديدة، فلقد ودعوا بفضل المكننة القادمة؟؟ من بلاد الغال مراكب الخشب، ليجلبوا مراكب من حديد، نصبت في مؤخرتها راجمات الصواريخ، وبدا واضحاً أن المركب ذاهب إلى حرب وليس لأجل التخلص من طوفان الرغبة الذي عصف بأور لتستنجد بنوح ويعيد خيارات النجاة الأخرى في رحلة السفينة.

كانت الموسيقى ترسل في ليل التمني نسائم من فضة، فيما كان غناء رجل أوري من ذهب. أمتعني صفاء حنجرته، وتذكرت أن هذا الصوت لطالما امتلك ليل حانات مدينتي، وعرفت أن من يرسل أثير القلب المعذب كان معي تلميذاً في المدرسة الابتدائية, ناديت عليه فلم يسمعني. كانت الآلات المتناثرة بألحانها كنجوم مرتبكة تمنع صوتي من الوصول. وحده نوح سمعني ليقترب من نافذة سعة الرؤيا، ويقول: أيها الأوري، كنت أحسب موتك موتا لي، لأجل هذا رفضت البوح بحكم كتبوه على الألواح وقدموه إلي قبل وجبة الغداء كي يساوموني. أنت تعرف أن جوع النبي حكمة من الرب، لهذا كسرت اللوح وأزحت المائدة بعيداً، وها أنا ذا لأجلك منذ الصباح لم أتناول شيئاً. الله سيغذي جسدي برحمته، وسيظل كتمان صوتي مبدأ لا أحيد عنه. أتدري لماذا؟ لأنك تلميذ لقديس شهيد، وفي سومر الشهيد يساوي في ذاكرة الأنبياء نصف الجنة.

قلت: ونصف الجنة الآخر ؟

- - تلك يتحكم بها الله، وربما يمنحها لشهيد أيضاً.

أقنعني النبي بصوته المدهون ببركات الحياة وطين الفرات. تصورت أن موتي لم يعد ممكناً حتى لو اجتمع جنرالات العالم كله، وإن المرسوم الذي سيصدره أورنمو بأني فقدت في العاصفة البحرية لم يعد ذا قيمة، فلكي تصد ظلم السلاطين والربابنة التجأ إلى نبي أو إلى شاعر.

قلت هذا لنوح إذ قال: الجلسة معك تعوضني عن ثلاثة أرغفة وكأسين من اللبن وعشر حبات من التمر.

قلت: ولو كانت مع معلمي لأشبعتك العمر كله.

قال: وهل يتجاوز القديسون ذاكرة الأنبياء؟

- كلا يا سيدي، وإنما يضيفون إليها بريق الجوهر.

- وهل ذاكرة الأنبياء بلا بريق؟

- عفواً إنها البريق كله، ولكنهم يضيفون إليها طعماً جميلاً يتعلق بالوجود الأرضي. قدرتهم في الوصول إلى السماء تبدأ من حجر يكتبون عليه رؤى مفترضة ولكنها حقيقة لا تنتهي، وقداستكم تمتلكون الرؤى المحكمة تلك التي يبعثها الله، فلا مجال للافتراض. كل قديس يستضئ برؤى نبي، ولا أدري لماذا لم يستظل معلمي برؤاك؟

- ربما كان معي، فمريدي كثر، ونصائحي كنت أختار لها ظلاً كبيراً والجالسون بأعداد لا تحصى. أظن أن واحداً يجلس في الطرف الأيسر من المكان، كان معلمك، ففي عينيه بريق جوهر قوي، كنت أرقبه ولكن إشارتي لا تصل إليه وكان ينسحب مباشرة بعد نزولي من صخرة الكلام.

- برداء رمادي ورأس حاسر.

- نعم.. إنه هو..

- إذن أنا وقداستكم لنلتقي عند قبر قديس.

- وهذا ما لا أتمناه.

- لماذا؟

- هذا عائد إلى هيبة الأنبياء .

تذكرت سلطة ربان السفينة وحكمه المسبق علي. أردت أن أثير نزاعاً يتصل بهيبة النبي الذي ارتهنت الرحلة باسمه، لكني أدركت في قراءة للكتب المقدسة أن الأنبياء في فترات من سني رسالتهم يبدون مثل مساكين، وهذا عائد إلى طيبتهم المفرطة، ولكنهم في لحظة غضب يطلبون من الرب إفناء جيش برمشة عين، نوح يستطيع فعل كل شيء, إلا أنه وإلى الآن يرفض البوح، ومن هذا البوح أدركت سلامتي...

سارت السفينة على موج يدمع أسى لرؤيته نبياً حزيناً. افترضت لوجودي حالات عدة وفي كل مرة اصطدم بأور التي لا تغيب عن مخيلتي مثلما لا يغيب الشتاء عن خيال المطرْ كان هذا الافتراض يوصلني إلى سعادات صغيرة أجمعها مع كسرة الخبز وكأس اللبن الذي يقدم إلي في كل ليلة, ولأني حظيت بإعجاب نوح سمح لي أن أقترب لساعة واحدة من نافذة العنبر لأتأمل السماء الهاطلة بالغيث الغاضب, وسمح لي أيضاً أن أحاور الشيخ الذي أمتلك من عمره نصفاً من الألفية الثانية وعاد إلى هنا. يسجد بالإيماءة ويفكر بالإيماءة، وبها يقرر أيضاً فيما كانت السلطات الأخرى للربان القاسي ولابن آوى الذي لم يبق على دجاجة إلا وخز ذيلها بنظرة كافرة, ولأنهم أتوا بسبعة أزواج منها ومن كل فصيلة أتوا باثنين فقط فقد كان يدعو دوماً إلى أن تكون ستة أزواج من حصة بطنه لكن نوح كان يردد أنه سيضطر أن يشج رأس ابن آوى بحجر عندما يقدم على فعله

الشرير هذا, ولأن ابن آوى أدرك تعاطف نوح معي، كان دائم التجوال أمام باب العنبر وهو يردد بصوت عال.. (أيها الإنسان ليتك دجاجة لأكلتك فأنت مفرد ولا مكان لك هنا).

هذا ابن آوى الذي كشف عورته للريح وأعطى للأسد ميثاقاً من هواء، ليطير بعد ذلك وحده بالفريسة، ولأنه كما قالت صحائف الأمس من الأنجاس, فلم يلتحق بالسفينة إلا مع أنثاه التي فضلت ممارسة الحب مع الذئب الأبيض تاركة بعلها للمكائد.

كل مساء كان النبي يحمل كرسيه قرب نافذة العنبر ويبدأ مع سعادتي طقساً من الود، مستذكراً أزمنة الدعوة الإلهية وعندما بلغ من العمر مالم تبلغه أشجار التوت قال لربه: جزعت من تلون البشر. أدعوهم إلى طاعتك فيأتون إلي بالقيثارات والراقصات وأناشيد المارينز. أدعوهم إلى سلامك فيأتوني بالحانات والطائرات والراجمات. أدعوهم إلى وحدانيتك فيأتوني بفرق الباليه وكرة القدم وكهنة من مطاط.

أيها الرب، جزع الأنبياء صمت الوردة، وصراخهم دموع تسخر من عيونها جلالتك, لم يمنحنا مع الكتاب سيفاً بل عصا لإدراك الطريق، والعصا لا ترد جمرة الكافرين، فما أنا فاعل؟

قال الرب: لذ بالصمت، وأفضح ما تريده بعينيك.

قال نوح: مللت مما تقصده أجفاني، فهم يحاولون تحاشي ما تقصده نظراتي.

قال الرب: إذن حرك عصاك.

قال نوح: يداي ترتعشان.

قال الرب: غداً أنزل إليك عذراء وكأس نبيذ وستنشط.

قال نوح: سومري أنا، ومع المرأة سأصهر حديد العالم كله. الآن ستبدأ أشواق أخرى، والحمد لك أولاً قبل كل شيء .

كان الليل على ليل السفينة يمتد بمحاذاة أحلام الطيور النائمة، وكنت أتأمل الأفق المضيء بجبال النجوم. حاولت أن أغمض أجفاناً من الأمل لأن النبي ربما سيقرر في الصباح القادم مصيري. وجاء الصباح. انتظم الربان مع العسس البحريين، وفي طرف الصف كان ابن آوى ينظر إلي بنظرات وحشية وقد انتصب قربه صليب من خشب، وكانت نظراته تقول، إن هذا الصليب لي.

الكل أنتظر استيقاظ الحكيم السومري (نوح) المدرك للذات قبل الظاهر, والذي خرج إلينا في هذا الصباح مرتدياً ثوباً أبيض من قطن ناصع البياض كالثلج. خيَّم الصمت على راكبي السفينة.

قال الربان: فلينطق سيدنا نوح

كنت أمدّ عنقاً مرتعشاً من فتحة العنبر، وكنت أتأمل في عيني النبي عطفاً لا ينتهي. تذكرت أن أور تدرك شجنها في قلوب الأنبياء، وأنهم ما داموا يحبون المدينة المقدسة فلن يؤذوا أيُّاً

من أبناء هذه المدينة التي قالت عنها الألواح إنها ولدت بقبلة طبعها آنو على خد عشتار. فيض من الشوق اجتاح كياني كي أعانق النبي, وهو شعر بذلك وتمنَّت عيناه مثلما تمنيت أنا. كانت تايتانيك تسير وسط موج صاخب عندما قطعت الحمامة صمت انتظار الحكمة وجاءت بالنبأ السار: (يا ساكني السفينة، أرى البر في مرمى بصري) تجهم الربان، وانزوى ابن آوى في ركن مظلم تاركاً صليب الخشب يحكي عن مؤامرة قادمة لقتل نبي, فيما أطلقت الموسيقى دعوات لانسجام فرح أسطوري، فلقد تم العبور ونوح لم ينطق بالحكم الذي أرادوه أن يكون في هذا الصباح حكماً يرمي بي في البحر.

ابتسم. وصلت ابتسامته إلى قلبي, كانت عيناه تضيئان بشموع زرق عندما فتح أحدهم باب عنبر السفينة وقال:

- أيها الأوري، الآن تستطيع أن تعيش معنا على ظهر السفينة في أمان, فلقد جلبت لنا الفأل الحسن ووصلنا إلى البر سالمين.

صورة للذكرى

إلى روح القاص الدكتور مهدي جبر

(أنتم أيها الآلهة الخالدون.. أنا أيضاً أروم أن أكون من جنسكم المبارك، ولكن الحظ وآلهة خالدة أخرى غلبتني، وأرسلت الرعد السماوي الضارب، وقد هربت من دائرة الحزن العميق الصعب، وخطوت إلى الذروة بأقدامي الخفيفة وانزلقت في حضن الربة ملكة العالم السفلي.. ابتهج لهذه التجربة! فأنت لم تخبرها قط. لقد أصبحت إلها بدلاً من البشر، وسقطت كرضيع في حليب. لك التحية لأنك سرت على اليمين خلال المرج).

نص أورفي

في سومر كان الموت يرتدي قناعاً أسود، ولا يتحرك إلا عندما تآمره الآلهة بذلك، والذي يموت يسجَّى وتقرأ قرب رأسه التراتيل وهي خيوط من ضوء نحاسي يوصل حياة الميت بآخرته السعيدة. العاديون يدفنون في العراء لأن حياتهم الثانية مثل الأولى، ليس فيها سوى الماء والخبز والأرض المعشوشبة، أما النخبة من الكهنة والملوك والكتاب والأثرياء فإن موتهم لا يختلف عن حياتهم, فالخمر سيتوفر لهم والموسيقى والعجل السمين، لكن الألواح كشفت عن أمر غريب. أن فقراء سومر عندما يموتون ترتسم فوق محياهم ابتسامة مشرقة، وقال صاحب المدفن - ابن صبار – أن موت الفقير يجلب ليومه السعد, لهذا فهو يود أن يموت فقير كل صباح حتى يستطيع أن يطعم أولاده جيدا. أما إذا مات ثري أو ملك، فتلك هي الكارثة، فهراوات الجند والحاشية تظل تضرب على رأسه طوال الوقت الذي يحفر فيه بمعوله ليهندس للعظيم المتوفي لحداً لموته الكئيب حيث يقول: أن الوجوم والفزع مرسوم على الموتى من النخبة دوماً وأضاف يبدو أن الآلهة تتعمد ذلك كي تتشفى بهم لأنهم ربما خرجوا عن الطاعة ورفضوا أن يهدوا لها الجواري الجميلات، وقال أنه ذات ليلة رأى عشتار تأمر أحد حراسها أن يلتقط له صورة تذكارية بكاميرا كوداك قرب جسد أنكيدوا الميت وهي مبتسمة تشفياً بجلجامش الذي رفض مضاجعتها.

ذلك الموت يعبر أودية صمت السنين ليصل إلى العلي القدير، وهو يقدِّر بعد ذلك إلى أي اتجاه يسير. في الحياة الأرضية لأي مسافر خيارات ألف طريق. لقد قرأنا عن ذلك، حتى الأنبياء كانوا ذوي رحلات متشعبة: إبراهيم ونوح وموسى (عليهم السلام) ولمحمد (ص) رحلتان وفي ذلك استثناء. واحدة هاجر فيها مع صاحبه إلى المدينة، وأخرى روحية تلك التي أسرى بها ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى على ظهر البراق الذي تمنيته ذات ليلة ثلجية أن يسري بي إلى أحضان أمي وكانت الشظايا وقتها تسقط كما المطر قرب ملجأ شقي التجأ إليه جنوبيان، أنا ورفيق يقال أنه الآن يكتب الشعر على ضفاف السين مقلداً أبو لينير في طريقة الكتابة، وآخرون ذكروا أنه

سرح شعره حتى أخمص قدميه لكي يبدو كإنسان بدائي يستمتع السواح بالتقاط صور تذكارية معه مقابل عشرة فرنكات لكل صورة. في ليلة سومرية تدثرت بمعطف إبراهيم (ع) وبكيت على الذي يحدث لشعراء وطني وجنوده وتمنيت أن يأتي الآن من شعره يلامس الأرض ليراني كيف أجاهد كشمشون لأبدل بطاقتي التموينية الضائعة بأخرى جديدة, وليرى دموعي المتكسرة وأنا جالس أمام الكاميرا الشمسية للمعاملة التي وصلت أوراقها إلى اليوم عشرين ورقة, والموظفة الحسناء في مركز التموين أرادت ورقة أخرى أذكر فيها وقت ضياع البطاقة فقلت الثالثة ليلاً.

قالت: وأين كنت؟

قلت: أودع إبراهيم لأطراف مدينة أور وفي العودة أضعتها بعد أن هاجمتني كلاب قرية المنصورية.

تساءلت: من إبراهيم؟

قلت: إنه نبي.

قالت: نبي جديد.

قلت: إنه قديم جداً ولكنه يتجدد مع كل يوم حصار.

هي لم تفهم.. تأملت صورتي وابتسامتي الباكية، ثم أعادتها إلي قائلة: أن ملامحي ليست واضحة وأنها تريد صورة كهربائية.

قلت: أنا أريد بطاقة تموين وليس جواز سفر.

قالت: أنها أهم .

قلت: ولكني لا أملك ثمن الصورة الكهربائية.

قالت: اذهب قرب وكلاء الطحين أولئك وارسم لهم ذات الملامح التي في هذه الصورة وسيعطونك .

قلت غاضباً: أستجدي؟!

- بالضبط.

- كم أنت وقحة!

رمت الأوراق في وجهي، نادت على الشرطي واتهمتني بأني شتمت أباها ووصفتها بالعهر. جرجرني الرجل من قميصي الذي تمزق بين يديه. حاول الوكلاء والمراجعون تخليصي منه فلم يفلحوا. صدفة كان هناك صحفي مع كاميرته يطلب لقاء لجريدته مع مدير المركز فأعجبه المنظر والتقط لنا صورة تذكارية, خرج المدير ليستفسر عن هذه الضوضاء ليُفاجئ بي، أرتجف بين يدي الرجل مثل ارتجاف فأر بين أسنان قط، صرخ في وجه الشرطي: ما الذي تفعله بالأستاذ، كان أذكى طالب في صفنا.

لم أعرفه.. ولكنه عرفني.. تركني الشرطي، وأدخلني المدير إلى غرفته لتلحق به الموظفة وهي تبكي وفمها مليء بالتهم الباطلة.. هو لم يصدقها، ربما لأنه يعرف جيداً أني لا أعتدي على نملة. دخل الصحفي تأمل وجهي جيداً وقال متأسفاً: أيها القاص الرائع.. إني أعتذر. يا لقساوتك أيتها الفتاة كيف تفعلين هذا بإنسان مبدع!؟

دفنت رأسي بين أحضاني.. ساد غرفة المدير الصمت، سمعت من خلاله دموع الحسناء وهي ترن على سطح بلاط الغرفة وكأنها صوت موسيقى قيثارات عيد الزواج في أور.. رفعت رأسي. أنا كنت أبكي أيضاً وعندما التقت دموعنا كان ضوء كاميرا الصحفي يلتقط لنا صورة أخرى. ومنذ تلك اللحظة أحسست أن الإنسان خلق ليحرج ولتضيء أمامه أضواء قدره الذي مارس لعبة الحلم على قماش أبيض فاختلطت عليه نجوم محنته التي كونتها بهندسة فلكية انجم ليل انتصاره على الموظفة التي خجلت من تصرفها ولتعلن بدموعها التي امتزجت مع النجوم ليصيرا بيتا من بيوت القمر (أنها له إنشاء ذلك..) وبعيداً عن رغبات حسناء المركز التمويني سار إبراهيم يتاجر في رغبات الله ويسعى جاهداً أن يكسب صورة فوتوغرافية مع مهدي جبر القاص الذي توفاه الله قبل يومين في حادث مؤسف وكان معنا، أنا وإبراهيم الخليل في بهو فندق الشيراتون ننتظر أحد الأصدقاء يلتقط لنا صورة لأرشيفه الخاص في انتخابات اتحاد الأدباء الأخيرة. لقد وجد الموت صورته الملونة. أعطى محنته لحوامض التكبير، والسالب الذي أظهر دموع مهدي في قصته الأخيرة مع الحياة. كان يهدف إلى إظهار قصصنا نحن الغرباء حتى مع أنفسنا, قال إبراهيم (عليه السلام) وقد أثاره موت مبدع ولحظة الإحراج وأنا أتأمل بوجهي الكئيب الفزع عدسة الصحفي المتطفل وقتما جرجرني الشرطي:

(إنَّ الحكمة في كل هذا هو الامتحان. أيوب السومري كان مهيأ لينتظر ألف عام على صخرة أحزانه ليجد مأساته ثم يقتلها).

مأساتك أنت لم يتجاوز عمرها التسعة أعوام وبدوت مثل فأر في مصيدة، تتأمل في وجه الموظفة حزن ألف عام من الكتابة، وتوصل موت المفردة بدموع عينيها، لتكتب. ما الذي تريد أن تقوله..؟ الحكماء أدركوا أن هذا العصر لا يصلح سوى لتبديل إطارات السيارات التَّالفة، أو لترمي بقايا جمالياتك على وجه خطيبة رونالدو التي تراقب خطيبها وهو يتلاعب بقدميه بأعصاب لاعبي المنتخب المغربي, وغير هذا: إنَّ الألم الذي ملأ فم مدير الدائرة هو المدح الوحيد الذي يمكن أن يقدم لمجموع ما كتب.

وإذا كان الموت مجرد رغبة مدروسة للحصول على هاجس ما، فذلك يلغي حتى رغبتك أن تكون ذا شأن.. لقد طويت في رحلتي فراسخ أحلام ألف ملك, فلم أجد سواه هذا الذي يشتري لحوم العصافير بمثاقيل من ذهب، فعرفت أن رسالتي يمكنها أن تستريح الآن في أول مقهى يصادفني, ولأنتظر غضب صاحبه عندما يعلم أنني لا أملك ثمن قدح الشاي الذي شربته. تداخلت الأزمنة والوجوه وإطار اللوحة واحد. أنت أيها الموت. يا من تُدرِك ولا تُدرَك. أيها الصرخة التي أطلقتها الأرض يوم سالت دماء قابيل. أنت الفخ الذي يسقط فيه الملوك والشحاذون والشعراء ومتبادلو العملات الصعبة، أنت النوارس التي تطير في بحر الليل لتتصيد من يملك حلماً بنفسجياً, كذلك الذي تمناه مهدي وهو يقف قربي متسائلاً عن حر أور وأخبار الأصدقاء والشائعات التي تتحدث عن زيادة في الراتب، وغير ذلك سيستعير الموت وجه الحسناء التي طلبت إمضائي فقط, ومزقت كل الأوراق الأخرى. لحظة وكانت في يدي بطاقة تموين جديدة, وكانت عيناها لا تزالان

تضيئان ببقايا دموع خجل رأت فيها صحوتي الأولى.. ودموعي الغزيرة التي انسابت لموت مبدع من جنوب البلاد التي أعطاها الله كل شيء.. إلا الكافيار.

في العودة كنت مضطرباً. وقد فقدت حصانتي، وعرفني كل الناس. أنني كاتب ومثقف ولكن بقميص ممزق وهذا يعني أنني ربما مجنون. رفضت باصات الأجرة أن تقف لتقلني.. كنت أدير وجهي حياء عن المارة. لحظة.. وكانت الحسناء بسيارتها تقف قربي.. تصور.. موظفة وتملك سيارة.. عددت سنين الوظيفة فوجدت أنها لا تتعدى بقيمتها ثلاث دزينات من القمصان الجديدة, وشعرت بأحقية آدم أن يظل عارياً حتى اللحظة التي اكتشف فيها أن دودة القز تصنع حريراً أبيض وأن نولاً واحداً من أحفاده يستطيع أن يصنع من هذا الحرير قميص فان هاوزن من النوع الفاخر, وعندما ارتداه صفقت له الذرية مندهشة وقررت هي أيضاً أن ترتدي قمصاناً ودشاديش وفساتينا من الحرير، ومن يومها اكتشفت الموضة.

جلست قربها بعد أن دعتني وملأت وجهها ابتسامة زرقاء تشبه بحراً نائما.

قالت: وقد أحسَّت بنشوة غامرة.. كنت أتصورك مراجعا عادياً، وأنك عندما نعتني بالوقاحة إنما أردت بعدها أن تضربني فاستنجدت بالشرطي.. ولكي أتخلص من غضبك كلت لك تهماً أخرى، حتى لا أعود لأراك أمامي ثانية فكان غضبك وحشياً. قلت: أنت أوصلت الحالة إلى شجار لم أتعود عليه.

قالت: ألم تتشاجر من قبل؟

قلت: تشاجرت ألف مرة.. ولكن في حرب حقيقية، وكان الموت نهاية المطاف لكل شجار.

قالت: وإبراهيم صديقك هل كان معك؟

قلت: هو مع الجميع. لأن الجميع أبناؤه.

- أي إبراهيم تقصد؟ هل هو حقاً إبراهيم الخليل؟

- نعم.

- وما شأنه بأور؟

- هو ولد فيها.

- عفواً هذه معلومات أجهلها, واعتقدت أن الشموع التي نشعلها في الزكريا ونتركها تسير في النهر ينبغي أن تكون لـه؟ فلا بد أن بيته كان على ضفاف الفرات، واستغرب أن أحداً لم يقل لي طوال فترة تعلمي أن فوق أرض مدينتي ولد نبي.. وإلا لماذا لا نشعلها لإبراهيم ونشعلها من أجل زكريا؟

- هذا موروث يا سيدتي.

قالت: وأنا أريد أن أعرف الكثير عنه. قلت: اتصلي بي، فأنا أجعل من بناء اتحاد الأدباء

مسكناً وهذا رقم هاتفه.

أخذت رقم الهاتف وقد ملأتها سعادة طافحة وتحدثت عن سرور المرء عندما يتعرف على كاتب.

منذ أيام وهي تتصل في كل وقت. تحدثت لها عن أطيافي السومرية ونظرتي عن الأشياء. أرسم لها فنتازيات الزمن البعيد. واليوم تحدثت لها عن مهدي ولقائي الأخير معه.. فرأيت دموعها وقد ملأت حاكية الهاتف.

قلت لها.. لا أدري لماذا يصير موت الجنوبي ملوناً مثل ريش هدهد.

قالت: ربما كانت بلقيس جنوبية.

قلت: أن آخر لقاء لي معه كل لقاءً رومانسياً، تحدث فيها عن الشجن الروحي الذي تملكه المدن, وكان يقصد بذلك مجموعة (بصرياتا) أخبرته بدوري أن المدن في الجنوب حازت على إعجاب الآلهة قبل مدن الأرض الأخرى، فكانت أن نصبت فيها أول زقورة.. هي (شجرة النخلة) وأعتقد أن أول كاتب دون بالحرف هواجس البشر هو من الجنوب. فلماذا لا تكون بصرياتا وهي مدينة جنوبية هاجساً روحياً. قال: أنا تحدثت عن هذا, ونشرته في مجلة الآداب. وأعطاني نسخة.. وقرأت..

كانت عيناه زرقاوين كقماش مطعم بشذر، وكان رأسه الأشيب يضيء بهواجس الحاجة إلى أن يكون المرء متكاملاً.. مثقفاً وغنياً.. هو مَلَك الثقافة ولكنه لم يملك الغنى..

قالت: لو يعود إلى الحياة لأعطيته سيارتي.

قلت: كي يموت بها مرة أخرى.. أيام سومر كان الشعراء والكتاب لا يموتون سوى من تأثير أدواتهم.. وينبغي ألا نترك أدباءنا يموتون بغير أدواتهم كأن تدهس أحدهم سيارة.. أو تسقط في آخر طائرة.

قالت: ولكن كثيراً منهم استشهدوا في الحرب، من تأثير رصاصة أو شظية.

قلت: الرصاص والشظايا بعض أدوات الإبداع ومن حقهم أن يموتوا بها. أما أن يدهسوا بحافلة أو تنقلب بهم سيارة أجرة فهذا ما لا يحق للموت أن يفعله.

قالت: ولكنه فعلها.

قلت: وفي ذلك خذلان لنا كمبدعين.

وهكذا يصبح موت قاص نسجاً لوحدة روحية بين اثنين يتدفق من خلالها نهر رغبات مشبع بالزبد وتصاوير الذكرى. من أن الله يدفع بمخلوقه إلى الضوء, فتصاب الروح بغرور البهجة ثم يطفئها أن روحانية فعل الموت يتقاسمها الخالق والمخلوق, ولكن في النهاية تكون الروح ملك الخالق وذلك ما ينطبق على مهدي تماماً.. أعدت السماعة إلى مكانها.. عدت إلى سريري.. لا أدري ما الذي أنجزته. هذه القصة عن صديقي أم امتلاك المرأة الحسناء.. أم هذا السبق الذي ملك

فيه الصحفي صورة قاص يجرجره رجل شرطة.. في كل الأحوال. هي طلبت مني صورة أكثر رومانسية. أن أكون إلى جانبها في استوديو لتلتقط معي صورة لا يمحوها الزمن، ولكي أحقق رغبتها اشترت لي قميصاً جديداً وبنطال وذهبنا نجلس بألفة أمام كاميرا التصوير.

وأشد ما أدهشنا ونحن نقرأ يافطة المصور أنه كان اسمه مهدي.

السيرة الذاتية للكاتب

الكاتب / نعيم عبد مهلهل

مواليد / العراق

- حائز على جائزة الدولة في الرواية 2003.

- حائز على جائزة دار الشؤون الثقافية في القصة الجائزة التقديرية عن مجموعته القصصية (طيور الفاو الجميلة) عام 1978.

- حائز على جائزة القصة / المرتبة الأولى في مسابقة مجلة المرأة عام 1990 عن قصة (فتاة الاستعلامات).

- حائز على الجائزة الأولى في القصة لمسابقة اتحاد أدباء وكتاب ذي قار عام 1994 عن قصته (دموع حمزاتوف).

- حائز على الجائزة الأولى في القصة بمسابقة الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق عن قصة (كاهنة ديوان الوزارة) 1995.

- حائز على جائزة القصة القصيرة في مسابقة اتحاد كتاب العرب/ دمشق عن قصته (تفاحة دلمون) عام 2007.

- حاز على الجائزة الثانية في مجال الرواية عن روايته (جنكيز خان) في مسابقة مجلة دبي الإبداعية الكبرى/ دار الصدى للصحافة والأعلام دبي: 2007.

- حائز على جائزة العنقاء الذهبية في المجال القصصي عام 2007 التي يقدمها بيت القصة العراقي.

- حائز على جائزة أدب الرحلات لعام 2011 عن كتابه ابن بطوطة ناقة الجغرافية وأنوثة المدن.

- يكتب القصة والنقد الأدبي والشعر والمقالة السياسية ومهتم بالديانات القديمة والميثولوجيا السومرية.

- حدائق الغرام السومرية / قصص / اتحاد كتاب العرب / دمشق / 2001.

صدر له منذ عام 2006

- سياحة روحية في المندائية النقية / عن اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر / هولندا / 5

- الأهوار طبيعة ساحرة / منشورات / وزارة الموارد المائية العراقية. عمان / 2006.

- فتاة حقل الرز / قصص / منشورات أور ـ 2000 / العراق / 2006.

- وردة بعطر الزقورة / شعر / دار نينوى / دمشق / 2007.

- المندائية من آدم (ع) وحتى قراءة الخامنائي / دار نينوى /دمشق / 2007.

- الأهوار ـ قصة المكان والحضارة ـ سيناريو سينمائي / وزارة الموارد المائية العراقية / 2007.

- الميثولوجيا من نرام - سين إلى بول بريمر / مقالات ورؤى / دار نينوى / دمشق / 2007.

- اليوم الأخير في حياة الأمير ـ قصص ـ دار نينوى / دمشق/ 2007.

- طوبوغرافيا المكان من أربيل إلى حاج عمران / دار نينوى / دمشق / 2007.

- جمهورية السيدة زينب / مقالات / دار نينوى 2007.

- النساء وعاطفة النبي يوسف / شعر / دار نينوى 2007.

- كتاب الرحلات (طنجة أور ـ ناقة أبن بطوطة وعكاز الخبز الحافي) / 2008/ منشورات أور / 2000.

- أنف الوردة. أنف كليوباترا / رواية / منشورات أور /2000/ 2008.

- عصافير الشارع المندائي / شعر / منشورات اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر / دمشق / 2008.

- رواية أنف كليوباترا أنف الوردة / دار نينوى للنشر: دمشق 2010 / طبعة ثانية.

- حمام نساء في اور / دار فضاءات /عمان /2010 /.

- كتاب الشعر باللغة الألمانية والعربية ملائكة في سماء زولنكن / دار نينوى دمشق / 2010.

- صلاة عشتار لأسماء صقر القاسمي...! الأسلاف يوقعون بهجة الروح شعريا..! / دراسة نقدية جمالية / دار نينوى /دمشق 2010.

- موناليزا مندائية على جدران اللوفر / دار فضاءات للنشر والتوزيع / عمان 2010.

- التأريخ الأسطوري لاحمر الشفاه / دار نينوى / دمشق / 2011.

- عراق رومي شنايدر / دار فضاءات /عمان 2011.

- موسيقى الجسد الألماني / شعر / دار نينوى / 2011.

- عدن جنة الفقراء / ألواح أثرية / دار نينوى / دمشق 2011.

- الأهوار من طوفان نوح حتى قهوة المضائف / طبعة ثانية / دار نينوى / دمشق 2011.

- جنكيز خان / رواية / طبعة ثانية في مشروع النشر المشترك بين دار نينوى ودار ميزوبوتاميا / 2011.

- الناصرية. مواويل أور وعكد الهوا. مشروع النشر المشترك بين دار نينوى في دمشق ودار ميزوبوتاميا في بغداد /2012.

- غراميات شاكيرا وسلمان المنكوب / قصص / مشروع النشر المشترك بين دار نينوى في دمشق ودار ميزوبوتاميا في بغداد /2012.

- بكاء مقابر الإنكليز في بابل / رواية / دار نينوى للطباعة والنشر / دمشق 2012.

- سان جون بيرس وكافافيس قصيدة اللذة والمدائح والاساطير / دراسات / مشروع النشر المشترك بين دار نينوى في دمشق ودار ميزوبوتاميا في بغداد /2012.

- كركوك. الليل التركماني وقناديل بابا كركر / رواية / مشروع النشر المشترك بين دار نينوى في دمشق ودار ميزوبوتاميا في بغداد /2012.

- عبد الله بشراحيل صناعة الوردة من عطر مكة / دراسة جمالية / النشر المشترك بين دار نينوى في دمشق ودار ميزوبوتاميا في بغداد / 2012.

- العلاج بشفاء الصوفية / شعر / دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع / دمشق 2012.

- المندائية - العراق بردائه الأبيض / وزارة الثقافة العراقية / مشروع بغداد عاصمة الثقافة / 2013

- غابريل ماركيز يكتب عن مدينة سامراء / رؤى ومقالات / دار ميزوبوتاميا /بغداد

.2013

- مدينة الجبايش / سياحة في مدن الاهوار / دار ميزوبوتاميا /بغداد 2013

- الآلهة والجواميس في مديرية الأمن / رواية / دار ميزوبوتاميا /بغداد 2014

- مدن حريم السلطان / رواية / دار نينوى للطباعة والنشر / دمشق 2014.

- النشيد الأممي لمعدان باريس / قصص / دار ميزوبوتاميا /بغداد 2014

- الفياغرا وشهية الجلوس مع باولو كوهلو / قصص / دار ميزوبوتاميا /بغداد 2014

- روايات طفولتنا الهندية / رؤى ومذكرات / دار ميزوبوتاميا /بغداد 2014

- الناصرية ، وجوه الأنبياء والفقراء / مذكرات / دار نينوى / دمشق 2014

- معدان أثينا / رواية / دار الشؤون الثقافية العامة /بغداد 2015

- مدير تحرير مجلة الأهوار الفصلية الصادرة عن وزارة الموارد المائية العراقية 2005.

- يكتب عموداً يومياً في صحيفة الزمان ، وصحيفة الحقيقة ومقال كل اثنين وثلاثاء، وفي صحف القلعة التركمانية ، الناس، البينة الجديدة، وينشر مقالاته الأدبية في المجلد الثقافي ألف ياء. ويكتب مقالا ادبيا كل شهر في مجلة تاتو الصادرة عن دار المدى في بغداد. يكتب منذ عام عمودا يوميا في صحيفة العالم العراقية.

- ينشر قَصَصه في مجلات العراق والعالم العربي.

- يكتب مقالاته النقدية في موقع جهة الشعر، ويكتب نصوصه الشعرية والقَصَصية، ومقالاته في الكثير من المواقع الإلكترونية..

- عضو الاتحاد العامّ للكُتّاب العرب/عضو الاتحاد العامّ للأدباء والكتّاب العراقيين.

- عضو اتحاد الصحفيين العراقيين.

- يقيم في ألمانيا / مدينة زولنكن.

المحتويات

أحزان النبي السومري	2
أحزان النبي السومري	5
كاهنة ديوان الوزارة	6
ميثولوجيا معاصرة	15
حبة رمل من أور	23
قيامة إبراهيم	29
حدث هذا في فندق	35
مرثية إلى رومي شنايدر	42
ساردانابال والحزن في نينوى	47
آنو فوق الشجرة	55
المكتبة السومرية	63
أحزان نوح السومري	71
صورة للذكرى	79
السيرة الذاتية للكاتب	85
صدر له منذ عام 2006	86